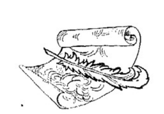
الأعلام من الأدباء والشعراء



أبو العتاهية

حياته وأغراضه الشعرية

إعداد

د. أحمد محمد عليان



دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء

أبو العتاهية

حياته وأغراضه الشعرية

إعداد
د. أحمد محمد عليان

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت . لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

المقدمة

إن الناظر في أدبنا العربي الخالد وتاريخه الطويل يبصر أمامه طريقاً ممتدة واسعة، مختلفة المراحل والأبعاد؛ ولكن تظهر له في هذه الطريق منائر وعلامات بارزة تدل مرتادها على ما فيها من ملامح وتهدي سالكها إلى ما لها من خصائص وسمات، وتشير في مفارقها المختلفة إلى ما ينحدر إليها من تيارات وما يتفرّع عنها من مذاهب واتجاهات. هذه العلامات إنما هي بمثابة المنارات التي تهدي الخائضين في بحار العلم الواسعة ومحيطات الأدب المضطربة فترشدهم إلى بر الخلاص وشاطىء الأمان. وأعلام أدبنا العربي هم تلك العلامات والمنارات التي توجهنا إلى معرفة مسالكه ودروبه ومذاهبه واتجاهاته في تاريخه الضخم العريض.

وأبو العتاهية هو أحد هؤلاء الأعلام الذين تلوح منهم ومضات وإشعاعات تدل على جزء مهم من الطريق؛ ذلك أنه يقف شامخاً في تاريخ هذا الأدب بعد أن أخذت روافد الثقافات الأجنبية، من فارسية ويونانية وسريانية وهندية تصب

في نهر الآداب والفنون العربية لتعمل فيها عملاً واسعاً. وقد وقف بجانبه في تلك الفترة المهمة طائفة من الأعلام الذين تطور على أيديهم أدب الأمة العربية تطوراً كبيراً.

بيد أن أبا العتاهية كان بين هؤلاء الأعلام شيئاً غريباً يدعو إلى التساؤل الذي يثير التأمل ويتطلّب الوقوف عنده لأنه ظهر علينا في هذه الفترة، التي شاع فيها اللهو والمجون، ناظماً في الزهد والموعظة والحكمة.

والأغرب من ذلك فإننا نراه يتهالك في صدر حياته على الملذات ويسلك طريق التهتك والمجانة ثم ننظر فنجد أن أكثر ما بأيدينا من شعره إنما هو في الزهد والمواعظ والحكمة، الأمر الذي لا ينبغي أن يؤخذ في سهولة ويسر قبل التعمق فيما وراءه من بواعث واستجلاء ما يخفيه من أسرار. من هنا نشأ الدافع إلى هذا البحث الذي سأكشف فيه تلك البواعث والأسرار في بيئته وشخصيته وفي انتاجه الذي وصل إلينا.

ومن أجل ذلك كان لا بد لي من أن أعاشر أشعاره التي استقيتها من كتب التاريخ المختلفة؛ أفحصها وأتأمّلها وأتعمّق مبانيها ومعانيها مرات عدة لكي أتمثل دلالتها على شخصية صاحبها وعلى مكوناته العقلية وأغراضه الشعرية المتنوعة.

ولكشف هذه الشخصية كان لا بد لي من أن استجلي

أمر البيئة التي عاش فيها وأعيش فوق الأرض التي نشأ ودرج عليها، وأسبر أغوار الظروف والملابسات السياسية والاجتماعية التي أحاطت به واستغرق في التأمل في الحياة العقلية والثقافية التي كان يضطرب فيها ويحتك بتياراتها ومذاهبها متأثراً بها ومؤثّراً فيها.

ويمضي بنا البحث في شخصيته وحياته الشعرية فإذا بنا نتبيّن فيه ملامح تختلف عن تلك الملامح التي طالما طالعتنا بها كتب التاريخ والأدب حين أطلقوا عليه اسم «شاعر الزهد» أو «الشاعر الزاهد» فقد رأيناه مضطرب الموقف يُظْهِرُ للناس شيئاً ويبطن لهم شيئاً؛ يطلع عليهم بثياب الزهاد ويعظهم بأسلوب الناسكين ثم يخفي في نفسه بعض عقائد الفرس المانوية. وربما كان هذا من أقوى الدوافع التي حثته على طلب الزهد والإلحاح في نظم معانيه.

وعندما عدت إلى شعره استجلي معانيه وأمعن النظر في مضمونه وجدته قد نظم في أغراض متعددة كالغزل والهجاء والعتاب والمدح والوصف والزهد والموعظة والحكمة؛ وقد مضيت بعد ذلك أدقق في خفايا أشعاره محاولاً أن أتبيّن خصائصه ومنزلته بين أعلام الشعر العربي في مرحلة مهمة من مراحل تطوره، بل أهم هذه المراحل في الزمن القديم

والوسيط، واستطعت أن أبرز هذه الخصائص وتلك المنزلة إبرازاً عماده التحري والإنصاف الدقيق.

ومهما يكن من أمر الجهد المبذول في دراسة هذه الشخصية ـ شخصية أبي العتاهية ـ وإنتاجها الفني ومحاولة الوصول إلى قرار في شأنهما جميعاً بما يميط اللثام عن الغموض الذي ظل يكتنفهما ويبعد الحيرة التي مكثت زمناً يكابدها المؤرخون والباحثون في شأنهما ـ فإنني لا أزعم أنني قد وصلت إلى القرار الفصل في أمر أبي العتاهية؛ شخصيته وأغراضه الشعرية بل أقول: إنني حاولت ـ قدر المستطاع ـ أن أسلك أصحّ الطرق وأوضح المسالك وأن أرتاد آمن المناهج وأسلمها غاية وأن أوفي البحث حقه من الدرس.. من أجل الوصول إلى الحقيقة العلمية الخالصة وتحقيق منهجها وتوفيره.

وعلى الله قصد السبيل

الفصل الأول: البيئة السياسية

لقد اتسمت سياسة العباسيين بالمرونة والحزم عند الخلفاء الأول؛ واعتمدت على القوة العسكرية في إرساء قواعدها ومجابهة الحركات الثورية والشعبية والإلحادية. وقد حفل عهدهم بكثير من هذه الحركات التي كان أخطرها على الإطلاق تلك المحاولات التي كانت تدعو إلى زعزعة النفوس وعقائدها الإسلامية وهدم السلطان العربي الإسلامي لإقامة سلطان فارسي ثنوي، وذلك عن طريق الثورات المسلحة تارة والثورات الفكرية تارة أخرى.

وقد اهتمت الدولة بأولئك الزنادقة الثائرين أو المتمردين اهتماماً بالغاً، فألحّت في طلبهم ومعاقبتهم وجنّدت الكثير من إمكاناتها للرد على مزاعمهم وعلى تفنيد أباطيلهم؛ وعملت على صرف الناس عن ضلالاتهم بحروبها في الخارج وبالنهضة العمرانية والعلمية والأدبية في الداخل وصرفت من أجل ذلك الكثير من الأموال.

ويسمّي المؤرخون هذا العصر من عصور الدولة

العباسية «بالعصر الذهبي» بسبب الأمجاد التي وصلت إليها فيه، فقد كفلت لنفسها قوة عسكرية مرهوبة الجانب عزيزة المكان، وبذلت جهوداً موفّقة في تحسين أحوال الرعية ورعاية المرافق العامة لهم؛ واتسعت رقعتها اتساعاً كبيراً، وقامت بأعمال حربية مجيدة ضد الدولة البيزنطية المجاورة، كما اتسمت الدولة بالسلطان الفخم والأبهة الكبيرة، بما كان فيها من قصور فخمة وأثاث فاخر وترف ظاهر ومظاهر أخرى كاتخاذ الحجاب والوزراء والجواري وما إلى ذلك مما أخذوا معظمه عن الفرس والرومان. هذا بالإضافة إلى ما تحقق فيها من حركة فكرية ناشطة ونهضة علمية واسعة.

فما إن وصل العباسيون إلى سدة الحكم حتى عملوا على تقوية جانبهم عسكرياً فبنوا الثكنات الخاصة بالجند في بغداد والرصافة والثغور والأقاليم؛ وأجروا الرواتب المغرية للعاملين في الجيوش. واختاروا نفراً من القواد البارعين من أمثال عيسى بن موسى، وخالد بن برمك ويزيد بن مزيد الشيباني، وهرثمة بن أعين، وخزيمة بن خازم وغيرهم، وهذا ما جعل جميع الحركات الثورية التي قامت تبوء بالفشل إذ كانت أشبه بلهيب يندلع ثم لا يلبث أن ينطفىء.

فبعد أن قتل المنصور أبا مسلم الخراساني رجل الدعوة وقائدها الأول، غضب الخراسانيون لهذه الفعلة وثاروا تحت

قيادة رجل مجوسي يسمّى سنباذ عام ١٣٧ هـ وقد غلب على كثير من بلاد خراسان وسيطر على العديد من مناطقها ولكن المنصور وفرسانه استطاعوا أن يخمدوا هذه الثورة ويقضوا عليها قضاء مبرماً، ويروى أنه قتل في هذه الفتنة حوالي ستين ألفاً من الثوار[١].

ويبدو أن أتباع أبي مسلم وجدوا أن الفرصة ليست مؤاتية للثورة المسلحة فعمدوا إلى نشر عقيدة تناسخ الأرواح وادعوا أن أبا مسلم يؤمن بها، وأن روح آدم حلت في عثمان بن نهيك قائد حرس المنصور، وأن أبا جعفر المنصور ربّهم الذي يطعمهم ويسقيهم؛ وأنهمم يطلبون رؤية ربهم هذا، فلمّا أطلّ عثمان عليهم ليقنعهم قتلوه،ونجا المنصور ـ في تلك الأثناء من موت محقق. وظهر بعد ذلك رجل يدعى إسحاق فدعا الناس إلى أبي مسلم، وزعم أنه نبيّ أرسله زرادشت وأنه لا يزال حيّاً لم يمت[٢].

---

(١) أنظر ـ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦/ ١٤٠، ط القاهرة ١٩٣٩.
ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥/ ٢٢٩ ط القاهرة ١٣٠١ هـ.
ـ فيليب حتي: تاريخ العرب ٢/ ٣٥٩ ط القاهرة ١٩٥٢.

(٢) انظر الصراع بين الموالي والعرب، تأليف الدكتور محمد بديع شريف ص ٥٥. القاهرة ١٩٥٤ م.

وظهر بعد ذلك في خراسان المقنّع، وهو رجل أعور قصير، ادّعى الألوهية وقال بالتناسخ، وأن الله خلق آدم فتحول في صورته ثم في صورة نوح، وتتابع إلى أن وصل إلى أبي مسلم الخراساني ثم تحول إليه هو. . وكان يقول: أن أبا مسلم أفضل من النبي؛ وشرّع كثيراً مما جاء في المانوية والمزدكية، وأباح حرمات الإسلام فتبعه خلق كثيرون كانوا يسجدون له. واستمرت دعوته حوالي أربع عشرة سنة وهو يصارع فيها جيوش المهدي الذي ضيّق الخناق عليه أخيراً فانتحر هو وأهله نحو عام ١٦٣ هـ[1].

وفي أيام الرشيد حدثت فتنة أخرى بخراسان، قام بها رافع بن نصر بن سيار الذي أغرى امرأة غنية وحرّضها على الكفر لتتخلّص من زوجها الغائب وتتزوّج منه وعندما علم عامل الرشيد بالأمر حبسه ولكنه استطاع أن يهرب من الحبس، وفرّ إلى بلاد سمرقند وما وراء النهر فاجتمع حوله خلق كثيرون، فارسل والي خراسان ابنه لمحاربته ولكن رافعاً هذا تمكّن منه وقتله في مدينة بلخ فاهتمّ الرشيد بحركته وخرج بنفسه

---

(١) ابن الأثير ١٦/٦ و٢١ وبروكلمان، في تاريخ الشعوب الإسلامية ١٣/٢ - ١٤.

لمحاربته ولكنه قضى في الطريق، ولهذا استمرت ثورته إلى أيام المأمون[1].

ولقد كانت هذه الحركات والثورات تعتمد على بث الآراء والعقائد التي تهدف إلى زعزعة مكانة الإسلام في النفوس؛ وبالتالي إلى إزالته وإقامة دولة جديدة يكون زمامها في أيدي غير المسلمين، ودينها ثنوي فارسي وغايتها إباحة الحرمات وإشاعة اللذات. وإلى ذلك يشير فون كريمر فيقول: «لقد جاء عنصر الموالي الجديد من الناحية الدينية ببذور خطيرة للغاية، هي التي أنبتت البدع وفرّقت الفرق وأوجدت الشك ونشرت الجدل والمراء، وخاصة ما جاءت به من المانوية»[2].

وكانت الفتنة التي حصلت بين الأمين والمأمون مناسبة صالحة لحدوث اضطرابات وثورات في الدولة مكّنت هؤلاء المارقين من أن ينتهزوا الفرصة في إشاعة مبادئهم واقتناص لذاتهم وإشباع رغباتهم. ففي هذه الفترة قام علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية السفياني في الشام ودعا لنفسه بالخلافة عام ١٩٥ هـ. وخرج بالكوفة محمد بن

---

(1) Von Kremer: Kulturgeschechte des orients unter den Chalifen; Band 2 S 169 Wien 1877.

(٢) انظر ابن الأثير ٦/١٢٤ ـ ١٢٦.

إبراهيم بن طباطبا وسيّر الجيوش إلى البصرة؛ وولّى ولاة على مكة واليمن وفارس والأهواز واستولى على المدائن[1]. وكان نصر العقيلي قد تغلّب على نواحي حلب وما جاورها وثبت أمره فيها[2]. وكانت بغداد عند غياب المأمون عنها مسرحاً لعدة فتن منها: ثورة الجند عام ٢٠٠ هـ وطردهم عمال الحسن بن سهل من المدينة وبيعتهم لإسحاق بن موسى الهادي خليفة للمأمون ببغداد؛ ومنها قيام أهل بغداد عام ٢٠١ هـ بالبيعة للمنصور بن المهدي خليفة، فلمّا أبى هذا نادوا بجعله خليفة للمأمون ببغداد والعراق، وقالوا لا نرضى بالمجوسي ابن المجوسي (يعني) الحسن بن سهل[3]. وزاد الأمر بلبلة أن المأمون في هذه السنة جعل ولاية العهد لعلي بن موسى الرضا بن جعفر وكتب بذلك إلى الأمصار وأمر بطرح السواد ولبس الخضرة رمز الشيعة العلويين، فغضب العباسيون لذلك وبايعوا لإبراهيم بن المهدي[4]. فاستولى إبراهيم هذا على الكوفة والسواد جميعاً وعسكر بالمدائن. ولم تتوقف هذه الفتن

---

(١) المصدر السابق نفسه ٦/١٢١ ـ ١٢٦.

(٢) الطبري ٧/١٣١ ـ ١٣٢ وبروكلمان ٢/٣٤.

(٣) ابن الأثير ٦/١٣٢ وانظر الطبري ٧/١٣٢ وبروكلمان ٢/٣٤.

(٤) المصدر السابق ٦/١٣٤ وبروكلمان ٢/٣٤ والجهشياري: الوزراء والكتاب ٣١٢.

إلّا عندما عاد المأمون إلى بغداد فهرب إبراهيم وظل متخفّياً حتى عفا الخليفة عنه عام ٢١٠ هـ[١].

وفي تلك الفترة التي اختل فيها النظام واضطرب الأمن حصل التعدي على الناس وتعرضت الأعراض للاستباحة. ويروي لنا الطبري طرفاً من الفوضى التي عمت في بغداد فيقول: «إن فساق الحربية والشطار الذين كانوا ببغداد والكرخ آذوا الناس أذىً شديداً، وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق، فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع، فانتهبوا الأعراض والأموال، والأمتعة، والسلطان لا يمنعهم، لأنهم بطانته وجنوده الذين يدافعون عنه»[٢]. وفي هذه الأثناء بالذات ابتدأ أمر بابك الخرمي بالبروز في بلاد فارس في عهد المأمون وحوالي العام ٢٠١ هـ. فأخذ يدعو إلى تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس المجوس؛ وادّعى الألوهية. وكان اتباع الخرمية يقولون بالتناسخ ويرفضون جميع الفروض الدينية، ويبيحون شرب الخمر ويستبيحون الحرمات،

(١) المصدر السابق ٦/١٦٠ وبروكلمان ٢/٣٥.
(٢) حركات الشيعة المتطرفين، للدكتور محمد جابر عبد العال ص ٣٢٧، ط القاهرة ١٩٥٤.

ويدينون بالإشتراكية في النساء. غير أن أمر بابك هذا لم يستفحل إلاّ أيام المعتصم[1].

وهذا ما يدل على أن هذه المنطقة، في العراق وفارس، منطقة الأمبراطورية الفارسية القديمة كانت مسرحاً لأخطر الفتن والثورات بعامة على الدين والدولة الإسلامية بحيث كانت تهدف إلى تحويل الحكم عن العرب إلى العجم ومن المسلمين إلى المجوس، ووجدت كثرتهم في هذه الرقعة من الدولة سبيلاً إلى الدعوة إلى مبادىء تنسجم مع ميولهم وعقائدهم القديمة التي ظلت مترسبة في نفوسهم رغم دخولهم في الدولة الإسلامية. وقد نجحوا إلى حد كبير في إشاعة هذه المبادىء، بحيث أصبح لها أنصارها المتحمسون الذين يدينون بها ويعتقدونها اعتقاداً؛ وآخرون يسايرون هؤلاء حبّاً في التجديد وممارسة البدع الجديدة.

ومهما يكن من أمر فإن الخلفاء العباسيين في هذا الطور من حياة دولتهم استطاعوا أن يخمدوا كل هذه الحركات على اختلاف مآربها، بفضل قوتهم العسكرية وقوادهم المهرة، وسياستهم الحازمة. كما كانت لهم أعمال حربية مجيدة خارج الدولة وعلى الأخص على حدودهم مع الدولة البيزنطية؛ مما

(١) المقدسي: البدء والتاريخ ٤/ ٣٠ ـ ٣١ وابن الأثير ٦/ ١٣٤.

أكسب دولتهم شهرة ورهبة ومجداً وظلت بذلك مذكورة عبر قرون التاريخ. واهتم المؤرخون بتسجيل هذه الحروب لأهميتها المستمدة من القوتين المتصارعتين.

وقد بدأت هذه الحروب بين الدولتين منذ أيام المهدي، حين كان يستعين بابنه هارون مع نفر من قواده الماهرين لصد عدوان الروم وتأديبهم وغزوهم؛ واتسمت أيامه بكثرة هذه الحروب، وكان النصر غالباً حليفه[1]؛ مما جعله مرهوب الجانب، مهاباً من الملوك. فقد ذكر اليعقوبي أن المهدي وجه رسلاً إلى الملوك يدعوهم إلى الطاعة، فدخل أكثرهم في طاعته؛ فكان منهم ملزك كابول وطبرستان والسغد وفرغانة وأسروشنة وسجستان والترك والتيبت والسند والصين والهند[2]. ولعل أهم غزوة في أيام المهدي تلك التي أرسل فيها ابنه هارون على رأس حملة سنة ١٦٥هـ إلى القسطنطينية عاصمة الدولة، ونجحت هجماته نجاحاً باهراً، اضطر الملكة إيرين التي كانت تحكم وصية على عرش ابنها قسطنطين السادس إلى طلب الصلح. وعقد معاهدة كانت غاية في الإذلال لبيزنطة، ألزمتها بدفع جزية كبيرة؛ ويروى أن هذه الحملة هي

---

(١) انظر فيليب حتي ٢ / ٣٧٠.

(٢) انظر تاريخ اليعقوبي ٣ / ١٣٠ - ١٣١.

التي رفعت منزلة هارون فلقّبه أبوه بالرشيد وأخذ له البيعة على قواده بعد موسى الهادي[1].

وقد أفادت هذه الحروب هارون بخروجه إليها؛ فما أن تولى هو الخلافة حتى اهتم بأمر حدود دولته وعمل على تأمينها ضد بيزنطة وضد كل الخارجين عليها. وتشير المصادر إلى أنه كان يغزو سنة ويحج سنة وكانت له معارك كثيرة مع الروم انتصر في أكثرها حتى وصل إلى القسطنطينية. وكان أظهر ما في هذه الحروب ـ تلك التي شنها ـ بعد أن نقض نقفور خليفة إيرين الهدنة، وطلب بكتاب سنة ١٨٧ إسترداد الجزية التي كانت تدفعها الملكة إيرين. فكان جواب هارون الرشيد: «بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام» ثم خرج في جيوش كثيفة مخترقاً آسيا الصغرى، حتى استولى على هرقلة وانتهى غرور نقفور ونقضه للعهد بالإذعان للصلح، والعودة إلى دفع الجزية وفي ذلك يقول أبو العتاهية:

ألا نادت هرقلة بالخراب
من الملك الموفق بالصواب

(١) انظر الطبري ٦/ ٣٧٩ ـ ٣٨١ وفيليب حتي ٢/ ٣٧٠ ـ ٣٧١.

غــدا هــارون يــرعــد بــالمنــايــا
ويـبــرق بــالـمــذكــرة الـقـضــاب
ورايــات يـحــل الـنـصــر فـيــهــا
تـمــر كــأنـهــا قـطـع الـسـحــاب
أمـيــر الـمـؤمـنـين ظـفــرت فــاسلم
وابـشــر بــالـغـنـيـمــة والإيــاب[1]

وفي عهد الرشيد جاوزت الحروب الخارجية آسيا الصغرى، ونزلت إلى البحر المتوسط فغزت جيوشه سنة ١٩٠ هـ جزيرة قبرص، وأسرت منها ستة عشر ألفاً من بينهم أسقف الجزيرة[2]. وامتدت حروب العباسيين إلى الجانب الجنوبي الشرقي في الهند وتوسعت إلى مناطق كثيرة هناك؛ فلما كانت أيام المنصور فتحت بلاد كشمير بواسطة واليه على السند الذي هدم معبدهم وبنى مكانه مسجداً. أمّا في أيام المهدي فقد غزا المسلمون بلاد الهند سنة ١٥٩ هـ وحاصروا مدينة باريد. وفتحوها عنوة وأشعلوا النار في تمثال بوذا. واستمرت الفتوحات أيام المأمون في بلاد السند والهند؛ وبذلك التقت الحضارتان العربية والهندية التقاءً مباشراً.

---

(١) انظر هذا في الطبري ٦/٥٠١ـ٥٠٣ وفيليب حتي ٢/٣٧١.
(٢) الطبري ٦/٥١٠.

والأمر المدهـش هو أنه في هذا العصر ـ عصر القوة في حياة الدولـة العباسيـة ـ بدأت بـوادر انفصـال أطـراف عن الخلافة، منذ أيام الرشيد، أكبر حاكم في القرون الوسطى، فإذا تركنا الأندلس التي كانت تقوم فيها دولة أموية منفصلة تماماً، وجدنا دولـة الأدارسة العلويين المستقلة عن بغـداد والمناوئة للعباسيين في المغرب الأقصى[١]. ودولة الأغالبة التي تقوم في تونس لتقف في وجه الأدارسة[٢]. ثم الدولة الطاهرية في خراسان[٣]. والأخيرتان كانتا في نطاق الدولة العباسية وإن تمتعتا بلون من الحكم الذاتي.

وقبل أن نختم هذا الفصل نحب أن نشير إلى أنه مع ظهور الدولة العباسية نشأت ظاهرة إدارية سياسية هي الوزارة، وهي ظاهرة منقولة عن أكاسرة الفرس، وظهرت كذلك في الميدان أسرة فارسية هي أسرة البرامكة التي تنتسب إلى جدهم برمك الذي كان كاهن بيت النار في مدينة بلخ. ولقدْ لمع خالد بن برمك في أفق السياسية والحرب وعلى الأخص بعد

---

(١) أسس الأدارسة دولتهم سنة ١٧٢هـ. انظر بهذا الخصوص العبر لابن خلدون ١٢/٤.

(٢) أقطع الرشيد إبراهيم بن الأغلب تونس سنة ١٨٤ هـ راجع بهذا الخصوص ابن الأثير ج ٦ ص ٦٣.

(٣) انظر بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ٣٦.

مقتل أبي سلمة الخلال وزير أبي العباس السفاح فنصّبه هذا الخليفة مكانه. وكان كذلك ليحيى بن خالد بن برمك منزلة عالية ومكانة مرموقة في بلاط المنصور والمهدي والرشيد. وقد روي أن الرشيد بعد أن ولي الخلافة قال ليحيى البرمكي: «قد قلّدتك أمر الرعية، فاحكم فيها بما ترى، واعزل من رأيت، واستعمل من رأيت» ودفع إليه خاتمة[1]. وكان ليحيى أربعة أبناء هم: الفضل وجعفر ومحمد وموسى، وكانوا جميعاً ذوي حظوة في البلاط، وخطورة في ميدان السياسة. ويروى أنه كان في بلاط الرشيد من أولاد يحيى خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب قلم وصاحب سيف؛ كما كان يحيى نفسه صاحب حظوة عالية عند الخيزران أم الهادي والرشيد، وكانت هذه صاحبة نفوذ في الدولة مما جعل يحيى يعرض أمور هذه الدولة عليها ويصدر عن رأيها حتى ماتت سنة ١٧٣ هـ فأخذ يصدر عن رأيه هو[2].

وعلى العموم فإن هؤلاء البرامكة كانوا على درجة عالية من المهارة والذكاء مما جعلهم يسيطرون على الدولة كما رأينا. ويقول المستشرق كوك: «إن الإدارة والنظام بلغا ذروة

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٤.
(٢) انظر الجهشياري ص ١٧٧.

النجاح في عهد العباسيين بفضل خدمات هذه الأسرة العظيمة التي كان أفرادها عباقرة موهوبين وكان سلطانهم هو سلطان الخليفة أو يشبهه[1]ع» وقد مكّنهم هذا النفوذ المتغلغل من أن يصيبوا ثروات ضخمة حتى ليحكى عن جعفر البرمكي أنه ابتنى داراً فأنفق عليها عشرين مليوناً من الدراهم[2]. ويروى أن جعفراً هذا كان قريباً جداً من الرشيد وهو لا يصبر عنه أبداً إذا جلس للشراب[3].

ولكن مهما قيل في إخلاص أبناء هذه الأسرة للعباسيين إلّا أن إشارات كثيرة كانت تدل على أنهم كانوا يعملون في الخفاء إلى تحويل الحكم للفرس وإزالته عن بني العباس، ويتجلّى ذلك في موقفهم من مواطنيهم واهتمامهم بالإحتفاء بأعياد إيران القديمة[4]. ويظهر أمرهم بوضوح أكثر مما اتخذه الفضل البرمكي من جند في خراسان بلغت عدتهم خمسمائة ألف رجل. . ولهذا كانوايتحينون الفرصة المناسبة لقلب الحكم بعد أن ملكوا مقاليد الأمور في العراق وخراسان؛ ولكن

(1) Richard Coke: Bagdad, the City of Peace, london 1927, P. 28 – 73.

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٧.

(٣) السابق.

(٤) السابق ج ٦ ص ٤٣ - ٤٤.

الرشيد علم بأمرهم فأنزل بهم نكبته المشهورة. ومما قاله ابن الأثير بهذا الخصوص: وكان أول ما ظهر من فساد حالهم أن علي بن عيسى بن ماهان سعى بموسى بن يحيى بن خالد واتهمه في أمر خراسان؛ وأعلم الرشيد أنه يكاتبهم ليسير إليهم ويخرجهم عن الطاعة فحبسة[1]». ولا شك أن خراسان كانت أصلح مكان لهذا الخروج منذ مقتل أبي مسلم وقيام الحركات المسلحة والحركات المعادية للإسلام في أعقاب ذلك المقتل؛ كما أن يحيى وأباه خالداً كانا قد اختطا خطتهما منذ وقت مبكر ـ حينما أتهم المنصور خالداً بأنه متعصّب للفرس وحينما اتهم الهادي يحيى بالكفر ـ وعملا على تنفيذها في حذق ودهاء وأناة ومعهما ابنائهم الذين كانوا كثيرين في بلاط الدولة وفي أيديهم وظائفها المهمة. ولهذا جعلوا يوجهون الحياة وجهة خاصة تخدم أغراضهم وتحقق مآربهم. ومما يؤكد ذلك أن يحيى بن زياد قال للفراء: «دخلت على جعفر بن يحيى البرمكي فقال لي: يا أبا زكريا، ما تقول فيما أقول؟ فقلت وما تقول أصلحك الله؟ قال: أزعم أن أبا العتاهية أشعر أهل هذا العصر، فقلت هو الله أشعرهم[2]». ففي هذه الشهادة

---

(١) الكامل ج ٦ ص ٧٠.

(٢) الأغاني طبعة بيروت ج ٤ ص ١٤.

من جعفر للفراء في حق أبي العتاهية دليل على العلاقة القوية التي كانت بينهما ؛ فقد كان أبو العتاهية يمتاز بالذكاء والدهاء اللذين يمتاز بهما جعفر في إخفاء عقيدته المانوية وإظهار الإسلام وارتداء ثياب الزهد. وكان أبو العتاهية الشاعر الذي يتوسّط مجالس جعفر الخاصة ويفضّله على غيره من الشعراء في مجالس الرشيد[١]؛ وأبو العتاهية الذي يقول:

ولّى الشباب فما له من حيله
وكسا ذؤابتي المشيب خمارا
أين البرامكة الذين عهدتم
بالأمس أعظم أهلها أخطارا[٢]

فيربط بين شبابه وزمان البرامكة، كما يربط بين ذهاب أيامهم وشيبه وضعفه. وإن أمر اختيار الرشيد لجعفر من بين البرامكة جميعاً ليقتله، على أنه أمر بحبس بقيتهم، ألَا يدلنا هذا على خطورة الدور الذي كان يمكن أن يقوم به جعفر لقربه الشديد المتصل من الرشيد؟.

وليس غريباً بعد هذا أن يجري الحسن بن سهل ثلاثة آلاف درهم كل شهر لأبي العتاهية ظل يقبلها إلى أن مات.

---

(١) السابق ج ٤ ص ٨٩.

(٢) الأغاني بيروت ج ٤ ص ٩١.

والحسن هذا أخو الفضل بن سهل الذي أراد نقل الخلافة عن العباسيين إلى الفرس فقتله المأمون، وولّى مكانه أخاه الحسن جبراً لمصابه ولكنه كان معتلاً بسبب هذا المصاب، والحسن هذا هو الذي ثار ضده البغداديون من قبل ونعتوه بالمجوسي ابن المجوسي[1].

(١) السابق نفسه.

الفصل الثاني: البيئة الاجتماعية

صادفت نشأة أبي العتاهية وحياته مجتمعاً زاخراً بالمعتقدات والمذاهب والنزعات طافحاً بالنشاط العقلي والفنّي، وأهم ما يميّز هذا النشاط أنه كان ينزع إلى التحرر والتجديد والتطور. وكان شاعرنا ينتمي إلى طبقة الموالي، وهي تعد الطبقة الثانية في السلم الإجتماعي للأمة الإسلامية في ذلك الوقت. ولهذا يقول فون كريمر في كتاب الحضارة الإسلامية: «من المحقق أن الطبقات الدنيا في الولايات المفتوحة في الأمبراطورية الفارسية البائدة أصبحت موالي برمتها، وبذلك أصبح يوجد في الولايات الجديدة سُلَم الطبقات المتدرج الآتي:

١ ـ العرب الفاتحون وابناؤهم

٢ ـ المسلمون الجدد أي المواطنون والموالي الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً.

٣ ـ السكان غير المسلمين[1]».

---

(١) الحضارة الإسلامية ص ٧٩.

ولقد كان لهؤلاء الموالي الأثر الأكبر في الحياة الإجتماعية، وفي النتاج الحضاري الضخم الذي وافق هذا العصر. ومن الواضح أن المجتمع في العراق كان أكثر تعرّضاً وأسرع تغيّراً لأنه كان ملتقى تيارات شتّى فارسية وهندية وهيلينية وسريانية. وقد رأينا أن الكوفة كانت من أسبق المدن وأسرعها إلى التأثر بهذه التيارات لقربها من الحيرة آخر مراكز الحضارة هناك ولقربها من مراكز أخرى للثقافات الفارسية والهندية والهيلينية.

ولمّا قامت بغداد كانت جديدة كل الجدّة في بنائها وسكانها ونشاطها بحيث نستطيع أن نقول بدون تحفّظ إنّ وجه الحياة فيها لم يكن يمتّ إلى الوجه العربي القديم إلّا بسبب ضعيف، فالملابس والأزياء والأطعمة والأشربة وطرز البناء والعادات كله كان متغيّراً في المجتمع البغدادي، حتى الدم اعتراه تغيير كبير بعد أن امتزج الدم العربي بدم الأجناس الجديدة وخاصة الجنس الفارسي، فنشأ من ذلك مجتمع يكاد يكون مولّداً من عرب وإماء؛ حتى قصور الخلفاء كانت تزخر بهن إماء للخليفة يعاشرهن ويولدن له الأطفال. ألم يكن المأمون من أم فارسية، كما كان أبوه هارون وعمّه موسى من جارية بربرية[١].

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٧.

ولكن على الرغم من هذا كله كان المجتمع عربياً لأنه يتكلّم ويكتب بلغة العرب العبقرية ويدين بدينهم السمح القوي؛ كان المجتمع عربي القلب واللسان وإن اكتسى بألوان جديدة من العيش والتفكير. كما لا يزال الأعاجم في حاجة إلى الإنتماء إلى العرب بالولاء، ويعتبرون ذلك شيئاً يشرفون به[1]؛ وقد عبّر أبو العتاهية عن هذا المعنى عندما هجا والبة بن الحباب وأنكر عليه أن يشرف بانتساب إلى العرب وهو أشقر أشبه بالموالي في قوله:

وابن الحباب صليبة زعموا
ومن المحال صليبة أشقر
ما بال من آباؤه عرب الألوان
يحسب من بني قيصر
أترون أهل البدو قد مسخوا
شقراً أما هذا من المنكر[2]

ولكن مهما يكن من أمرٍ فقد كان الموالي أقوى العناصر التي عملت على تجديد الحياة الإجتماعية وإذ كان روح النشاط والخصب فيها؛ ففي هذا العصر غيَّروا اللون العربي

---

(١) مقدمة للحضارة الإسلامية لفون كريمر ص ٢ وضحى الإسلام ج ١ ص ٣٧.

(٢) انظر الديوان ـ شكري فيصل دمشق ص ٤٩٤.

الذي كان سائداً في العصر الأموي إلى لون جديد فارسي بعد أن قويت فكرتهم التي نادوا بها وتحمّسوا لها من تعصب لكل ما هو فارسي، وساعدهم على ذلك كثرتهم في المجتمع الجديد ونفوذهم السياسي ونبوغ الكثيرين منهم في فروع المعرفة. كما أسهم التحرر العقلي وما صاحبه من انطلاق وجداني بتطوير المجتمع والعقلية الإسلامية التي اندفعت في خطوات سريعة نحو الخلق والتجديد. ثم إن السماحة الإسلامية ساعدت هي الأخرى في التطوير مما حدا بالناس إلى أن تتأثّر عقولهم بالنظريات والأفكار الغريبة على الإسلام التي تناولت مظاهر التعبير الفني من شعر ونثر، تلك المظاهر التي صوّرت حياة الجماعة تصويراً واضحاً. وساعد على هذه الحرية أن الخلفاء لم يكونوا متزمّتين بل كانوا يشجّعون على التطوير والنقل من ثقافات الأمم الأخرى وجداولها المختلفة التي التقت في نهر الثقافة العربية وكان إلى جانب ذلك الوزراء والأمراء الذين عاونوا بالمنح والتشجيع والتقريب إليهم ووقف الأموال والوظائف على العلم والنقل من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية[1].

(١) انظر القفطي في أخبار الحكماء في مواضع متفرقة وابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٦ وغيرها.

وقد أتاحت هذه الحرية وما شاع معها من تقاليد الفرس وعقائدهم للناس أن يذهبوا مذاهب شتّى في العبث واللهو والإستهتار وكان أكثرهم تأثراً بهذا التيار الشعراء الذين هبّوا للتعبير عن أنفسهم تعبيراً صريحاً جريئاً لا خوف فيه ولا تحفظ فخاضوا بأشعارهم في ميادين المجانة والخلاعة؛ وجاءت هذه الأشعار صورة قوية وصدى رائعاً لحياة الجماعة الماجنة في المجتمع وكانت الظروف مؤاتية لانتشار هذا الجانب في تلك الحياة التي كانت تجمع ألواناً متناقضة وصنوفاً متباينة من الجد والعبث ومن الورع والفسق ومن الإعتدال والتطرف والإضطراب.

وينبغي أن نلاحظ أن العرب لم يكونوا بمنأى عن هذه الحياة العابثة اللاهية، فالحقيقة أنهم كانوا يشكلون طبقة السادة الموسرين العازفين عن الإشتغال بالمهن والحرف؛ وتوافر لهم الفراغ إلى جانب المال والجواري والغلمان وقد رأينا أن نفراً منهم يستجيبون في الكوفة إلى ما قدّمه إليهم الموالي من أسباب اللذة والعكوف عليها وقد انتقلت هذه الأسباب إلى بغداد وعمّت المجتمع بما فيه من عرب وموالٍ على حد سواء. ويثبت ذلك الكاتب ليفي حينما يقول: «والعرب لم يكونوا غرباء عن الفرس غربة تامة فقد شاركوا الفرس في بعض المعتقدات الدينية والروحية القديمة، وفي

هذه الحقيقة يكمن تفسير السرعة والسهولة اللتين اقترن بهما غزو العرب لأهم الأقاليم الفارسية[1]. » وعلى هذا النحو امتزج المجتمع الجديد وتقبّل ما قُدِّم إليه من أسباب اللهو والمجانة والفساد.

وتدلنا الأخبار على أن موجة العبث والمجون بدأت واسعة منذ أوائل هذا العصر في العراق وعلى الأخص في الكوفة وغيرها. يقول ابن المعتزّ: «كان أبو العباس[2] مولعاً بأبي دلامة لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً لحسن أدبه وجودة شعره وكثرة ملحه ومعرفته بأخبار الناس وأيامهم. وكان أبو دلامة خليعاً ماجناً وكان يهرب منه ويأتي حانات الخمارين فيشرب مع إخوانه.. فعاتبه أبو العباس على ذلك» ولمّا اعتذر أبو دلامة بأنه يخشى أن يملّه أبو العباس قال له: «ما مللتك قط وما ذلك كما ذكرت ولكن قد اعتدت حانات الخمارين والخلعاء والمجّان». ثم وكَّلَ به وألزمه إلا يبرح حضرته، وكان يصلي معه الصلوات كلها فأضرّ ذلك به ولهذا قال:

---

(١) تراث فارس ص ٩٠.

(٢) هو أبو العباس السفاح، ويروي ابن خلكان القصة مع أبي جعفر المنصور ج ١ ص ١٩١.

ألـم تعـلمي أن الـخـليـفــة لــزنـي
بمسجـده والقصـر، مـالي وللقصـر
أصلي بـه الأولى مـع العصـر دائبـاً
فـويلي من الأولى وويلي من العصر
ويـحبـسنـي عـن مـجـلس أستـلذّه
أعلل فيــه بــالسمــاع وبــالـخمــر
ووالله مــا بـي نـيــة فـي صــلاتــه
ولا البر والإحسان والخيـر من أمري
ومــا ضــره والله يــصــلح أمــره
لـو أن ذنوب العـالمين على ظهـري

فلمّا سمع أبو العباس الأبيات قال: والله ما يفلح هذا أبداً فذروه وأصحابه[1]. وقد تسامح خلفاء آخرون عن الشعراء وعمّا كانوا يأتون به من عبث ومجون. فقد كان المهدي نفسه محباً للقيان وسماع الغناء، ومعجباً بالجواري ويقول فيهن الشعر[2]. وحفلت كتب التاريخ والأدب بما كان في القصر أيام الرشيد من ترف ولهو وغناء ويروى أنه كان في قصره من «جواريه المغنيات والخادمات في الشراب زهاء ألفي

---

(١) طبقات الشعراء ص ٦٠ ـ ٦١.
(٢) انظر البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٠٠ و٣٠١ والطبري ج ٦ ص ٤٠٤.

جارية في أحسن زي من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر[1]».

وكان من الخلعاء المجان الذين أشار أبو العباس إلى أن أبا دلامة اعتادهم واعتاد مجالسهم حماد عجرد ومن نوادرهما أنهما شربا يوماً فسكرا من الخمر فطلبوهما: فأما أبو دلامة فهرب وأمّا حماد فأُخِذَ إلى المهدي الذي أحب أن يعبث به فقال: يا عدوّ الله أتشرب الخمر وتسكر؟ إني سأقيم عليه الحد ولا تأخذني في الله لومة لائم وقال احبسوه حتى يصحو فكتب حماداً أبياتاً في الخمرة جاء فيها:

أمن صهباء، ريح المسك فيها
تـرقرق في الإناء لدى المزاج
عقار مثل عين الديك صرف
كأن شعاعها لهب السراج
وقد طبخت بنار الله حتى
لقد كانت من النطف النضاج[2]

ومنهم كذلك مطيع بن أياس الكناني الذي كان رأس هذه الجماعة وهو من شعراء الكوفة المجّان الذين أسرفوا في قول الشعر السافر في الخمر والجواري والغلمان وفي الغزل

---

(١) أغاني ساسي ج ٩ ص ٨٤.
(٢) طبقات ابن المعتز ص ٧١ ـ ٧٢.

المادي المكشوف[1]. وهو يعتبر من أوائل الذين تغزّلوا في الغلمان بغير حرج أو تحفّظ ومما قاله في هذا الموضوع:

وليس يقتم إلاّ ... سكران مع سكران
يسقيه كل غلام ... كأنه غصن بان
من خندريس عقار ... كحمرة الأرجوان[2]

والواقع أن أثر الجواري والغلمان في هذا الجانب من الحياة واضح أشد الوضوح فيما انتشر من خلاعة وفجور وفيما كثر من الشعر في هذا الميدان. أمّا الجواري فقد دخلن بكثرة إلى المنازل واقتناهن أصحاب القصور لملاحة فيهن أو لثقافة وأدب أو لعذوبة صوت ومهابة موسيقية أو لهذا جميعه؛ هذا فضلاً عن كثرتهن في دور اللهو والنخاسة وحوانيت الخمور التي كانت منتشرة في بغداد والكوفة وغيرهما من مدن العراق. ومن المعروف أنّ كثيراً من الجواري كن يتمتعن بحظ كبير من

---

(١) انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ط. المعارف ١٩٦٠ م. ص ٦٥ وما بعدها.

(٢) الأغاني ج ١٣/ ص ٢٩٣.

الثقافة في فنون مختلفة من العلم والأدب والغناء كالذي يذكر عن عريب ودنانير وغيرهما.

وهؤلاء الجواري كن موضوع الغزل المكشوف الجريء، وكن في الوقت ذاته من أقوى ناشريه ومذيعيه في الناس بروايته وغنائهن فيه؛ ذلك لأن الشعراء «كانوا يقعون في حب كثير من الجواري فكن يدفعنهم إلى النظم فيهن؛ وكن يَعِذْنه على إسماعهم بنغماتهن وأصواتهن الحلوة، فاسحات لهم في العبث والعشق والصبوة.. ولم يعد شاعر العصر العباسي يتغزّل بالحرة كما كان الشأن غالباً عند شعراء العصر الأموي؛ فقد خرجت تلك المرأة من سوق الغزل وحلّ محلها الجواري والإماء؛ وكان ذلك سبباً في أن يخرج الشعراء عن دائرة العِفّة والطُهر أو قل عن دائرة الوقار والإجلال للمرأة إلى دائرة الإباحية المسرفة والصراحة المكشوفة التي لا تعرف حياءً ولا ما يشبه الحياء[1]». وكان مطيع بن أياس في الكوفة وبشار بن برد في البصرة إمامين في هذا الإتجاه، دفعا غيرهما من الشعراء إلى النظم فيه. وكان الجواري يحفظن الشعر وينتقلن به بعد بيعهن من دور القيان والنخاسة إلى قصور الزعماء وبلاط الخليفة والحانات ودور اللهو.

---

(١) انظر الفن ومذاهبه ص ٦٣ - ٦٤.

أمّا الغلمان فكان لكثرتهم، في العصر العباسي، في حوانيت الخمر وحانات الشراب ودور اللهو وبيوت الخاصة، أثر كبير فيما وصل إلينا من شعر كثير في هذا الإتجاه؛ ومن يتصفّح دواوين شعر هذا العصر ومتفرق شعرهم يتثبّت من تلك الكثرة؛ ومن عدد الشعراء الذين نظموا في الغلمان يصفون ملاحتهم وعشقهم لهم ومجالس لهوهم وشربهم وإثمهم معهم في صورة خليعة لا حياء فيها ولا حرج وقد ذكرنا سابقاً أن مطيع ابن أياس من أوائل الذين نظموا في هذا الإتجاه في الكوفة وتلاه والبة بن الحباب وأبو نواس والرقاشي والحسين بن الضحاك والجماز البصري، فقد أُغْرِمَ هؤلاء بالغلمان يعشقونهم ويقولون الشعر فيهم في فجور وإسفاف وهو لون من الشعر لم يكن واضحاً في الشعر العربي قبل هذا العصر.

والواقع أن تساهل الخلفاء، وشيوع العبث واللهو في دور الوجوه من فرس وغيرهم، وخاصة البرامكة الذين كانوا يتظاهرون بالتساهل، والتسامح في مجالسهم؛ وكانت هذه المجالس تضم طوائف شتّى من أهل المذاهب والآراء والنحل، ويفسحون لهم في حرية الحديث والنقاش[1]، وكان هؤلاء جميعاً يبذلون في سخاء للشعراء ـ مما شجّع على قول

(١) مروج الذهب، طبع باريس ج٦ص٣٦٨ ـ ٣٧٦.

الشعر والتنويع فيه في حرية واسعة، برغم أنه كان مدعاة إلى إشاعة المجانة ودافعاً ـ إلى جانب العوامل الأخرى ـ إلى مقارفة الآثام والتحلل من قيود المجتمع والدين، وقد ظهر ذلك كله في أشعارهم وأخبارهم، صورة صادقة لما كان يتردد في جوانب الحياة من تحلل واضطراب. وكان في مقدمة هؤلاء الشعراء ـ كما عرفنا ـ بشار ومطيع وأبو دلامة ووالبة وأبو نواس ويحيى بن زياد وحماد عجرد وحماد بن الزرقان وحماد الراوية وصريع الغواني مسلم والحسين الخليع وسلم الخاسر وأبو الشمقمق والرقاشي والجماز وسايرهم في معظم الطريق أبو العتاهية.

وكان من أقوى العوامل التي ساعدت على انتشار العبث والمجون في هذا المجتمع هو موجة الزندقة والإلحاد والشك التي تسربت إليه من آراء ومعتقدات وفلسفات فارسية وهندية وهيلينية.

وكانت الزندقة أول ما نشأت في بلاد فارس ومنها انطلقت إلى الأقطار الأخرى، وقد أُطْلِقَتْ في ظروف ومناسبات مختلفة وكان ينعت بها أناس في أحوال شتّى وتلصق بآخرين كيداً أو تشنيعاً أو تندراً. والمعروف عنها أنها كانت تطلق على المانوية بصورة خاصة. والمانويون هم اتباع ماني

الذي مزج في عقيدته بين الزرادشتية والنصرانية ولـذا عدّه الزرادشتيون مارقاً وسمّوا اتباعه الزنادقة وقد كانوا يتوسلون التقية في حالات اضطهادهم ليخفوا حقيقة مانويتهم وليضمنوا لأنفسهم الحياة ولمذهبهم البقاء والإنتشار ولهذا ظل مذهبهم أقوى المذاهب الفارسية رسوخاً وأوسعها انتشاراً[1]. وبقي الناس متعلقين به حتى بعد الإسلام. وقد توسعت كلمة زندقة أخيراً لتطلق بصفة عامة على ثنوية الفرس من مانوية وزرادشتيه ومزدكية، وإن أسرف البعض في استعمالها أحياناً لنعت كل من بدت منه شبهة أو تجاوز لحدود الإسلام[2].

وتبدو خطورة أصحاب هذا المعتقد في اهتمام الخلفاء البالغ بمحاربتهم وبكل وسيلة ممكنة؛ لأن الواحد منهم لم يقلع عن زندقته مهما يكن الأمر. لهذا أعملوا السيف بهم واقتلوا كل من تثبت التهمة عليه منهم.

ومن الملاحظ أن شعراء الزنادقة كانوا ينفثون سمـوم

---

(١) انظر تراث فارس صفحات ٥، ٦، ٥٥، ٥٦.

(٢) انظر في الزندقة: دائرة المعارف الإسلامية، مادة زنديق ـ ومروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٣٣٢ وفون كريمر. الحضارة الإسلامية ص ١٠١ وضحى الإسلام ج ١ ص ١٤٣ ـ ١٦٤ وبروكلمان في تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٥، ١٦، ٤٥ وانظر Nicholson: Alit, Hist. of the Arabs P.P. 372 – 474.

مذهبهم بين الناس بما كانوا يقولونه من أشعار متضمّنة لآرائهم وأفكارهم وتعاليمهم. وكان في مقدمتهم بالبصرة بشار بن برد؛ وقد قتله المهدي من أجل زندقته[1] ومن أشعاره في هذا المذهب قوله:

الأرض مظلمة والنار مشرقة
والنار معبودة مذ كانت النار[2]

إذ يفضل النار المشرقة المعبودة، ومنها خلق إبليس على الأرض المظلمة ومنها خلق آدم حيث يقول:

إبليس أفضل من أبيكم آدم
فتنبهوا يا معشر الفجار
النار عنصره وآدم طينه
والطين لا يسمو سمو النار

وقُتِلَ أيضاً صالح بن عبد القدوس من أجل زندقته[3] بالرغم من الشعر الذي قاله في الزهد، والأمر بمحاسن الأخلاق، وذكر الموت والقبر.

وهكذا استطاعت الزندقة أن تسخّر في سبيلها الشعر

(١) طبقات ابن المعتز ص ٢١.
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٣.
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩١.

ليكون داعية إلى المجون والخلاعة وإباحة المحرمات وإشاعة اللذة مما يباعد بين الناس وبين الدين الإسلامي وهذا ما تقصد إليه المانويه من إثارة الشك في الدين الحنيف ليتخلّى معتنقوه عنه وتأخذ هي مكانه منهم. وهي لم تسخّر في سبيلها الشعر فحسب بل اعتمدت كذلك على طائفة من وجوه السياسة ذوي النفوذ كالبرامكة، وبني سهل، ومن وجوه الفكر كابن المقفّع وأبي عبيدة وعلان الشعوبي، ومنه أعلام الرواية من أشباه حماد الراوية وخلف الأحمر، الذين وضعوا الكتب وانتحلوا الروايات والأخبار وزيّفوا الأحاديث، في نصرة الثنوية على الإسلام وتفضيل الفرس على العرب.

غير أن هذا لا يعني أن المجتمع فسد لم يعد فيه مكان لغير الزندقة والمجون، فالحقيقة أن هذا كله كان موجوداً وشائعاً في قطاعات من المجتمع، ولكن وجد إلى جانب هذا طوائف أخرى يسلكون طريق الجدّ ويذهبون مذهب الزهد، إمّا لأنهم مضطرون إلى الزهد إذ لم يجدوا السبيل إلى الترف واللهو وعجزوا عن إدراكه، وهذا في الطبقات الفقيرة البائسة، وإما لأنهم ملّوا حياة المجانة بعد أن عبوا من كؤوسها حتى عافتها نفوسهم وصدفت عنها وهؤلاء هم التائبون الذين ذهبوا يكفرون عن خطاياهم بالتقشّف والتعبُّد وإمّا لأنهم انتبهوا إلى أن المجتمع قد عجّ بصنوف من العبث والمروق اللذين لا

يليقان بمجتمع إسلامي فالتزموا الجانب الآخر يدعون إليه ويذبون عنه، ومن هؤلاء كثير من الفقهاء والعلماء، وغيرهم من العباد والزهاد من أمثال عمرو بن عبيد وموسى بن سيّار الأسواري، وعمرو بن فائد والقاسم بن يحيى وصالح المري[1] وغيرهم من الذين ملأوا العراق بزهدهم ومواعظهم؛ وكان هناك تلامذة أبي حنيفة وابن حنبل وأضرابهما من أصحاب الشريعة الإسلامية وحملة الحديث وكان هناك المعتزلة الذين وهبوا أنفسهم للذود عن حياض الإسلام والرد على الملاحدة والزنادقة وكانت هناك العابدات من أمثال رابعة العدوية وشعوانة وريحانة وسامونة وميمونة وغيرهن.

وكان الخلفاء يشجعون على هذا الإتجاه بحكم أنهم رعاة الدين والحفاظ عليه من الضياع، وكان عليهم أن يحافظوا على جلال الخلافة الإسلامية وهيبتها، من هؤلاء الذين أرادوا أن ينالوا منها ويحوّلوها إلى الفرس الثنويين.

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر ١١٤. ومن الزهاد الذين أدركوا هذا العصر: سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم وابن اخته محمد بن كناسة، ووهيب بن الورد والأوزاعي، وعبد الواحد بن زيد، والفضيل بن عياض، والمعتمد بن سليمان، وعبد الله بن المبارك، ورياح القيسي، ومالك بن دينار، والحسن البصري، وعبد العزيز الراسي، وصالح بن عبد الجليل، وبشر الحافي، ومعروف الكرخي.

وقد دخل إلى حركة الزهد فنون أخرى من البدع لم يعرفها المسلمون من قبل كارتداء الزهاد لملابس خاصة بهم من بينها الملابس الصوفية[1] ومن هذه البدع أيضاً كثرة البكاء حتى قيل عن عصر رابعة العدوية بأنه كان عصر بكائين وخاصة أصدقاؤها مثل رباح بن عمرو القيسي الذي كان يبكي إذا دخل المسجد ويبكي إذا دخل بيته ويبكي إذا دخل الجبانة. فيقال له: أنت دهرك في مأتم؟ فيقول: يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا. ولعل الحسن البصري قد كان من أول الذين بدأوا هذه السلسلة الحافلة من البكائين الذين زخر بهم القرن الثاني للهجرة في مدينة البصرة[2]. ومنها أيضاً بدعة الذكر الذي أُقيمت له مجالس خاصة في زوايا ورباطات كانوا يعزلون أنفسهم فيها بعيداً عن جلبة الدنيا؛ وفيها يشتركون في أداء شعائرهم. وهم قد تأثروا في كل ذلك بالعقائد الهندية[3]. ويُروى أن أول رباط أُنشىء عام ١٥٠ هـ في عبدان قريباً من البصرة على يد عبد الواحد بن زيد (ت ١٧٧ هـ) وجماعة من النّساك المشهورين[4]. وهو الرباط الذي

---

(١) انظر في التصوف الإسلامي ٤٨، ٤٩.

(٢) شهيدة العشق ص ٣٣، ٣٤.

(٣) العقيدة والشريعة ص ١٦٣.

(٤) انظر التصوف المقارن ص ٣٢ وشهيدة العشق ص ٣٢.

اهتمّ أبـو العتاهيـة بذكـره في شعره والإشـادة بمن فيه من الزاهدين[١].

هذه البدع وغيرها من الأفكار والمظاهر والشعائر التي بدت في حياة الزهد والزاهدين تدل في وضوح على مقدار ما تأثرت به حركة الزهد من عناصر دخيلة على الإسلام سعت بها طائفة المانوية في المحيط الإسلامي ؛ وقد رأينا كيف كانت المانوية متأثرة بعناصر مختلفة من الزرادشتية والنصرانية والبوذية وليس من شك في أن الديانتين الأخيرتين كونتا الكثيـر من طقوس الزهد والتقشف المانوي ومظاهره. وكان في الإسلام عنصر زهدي يقوم على الإستغفار والندم والتوبة وبيع الدنيا بثواب الآخرة والخوف من الحساب والعقاب، فاستـطاعت المانوية أن تطل برأسها في أثناء هذه التعاليم وأن تحوّل الزهد الإسلامي المعتدل إلى ذلك الزهد المتطرف الذي تشيع فيه البدع والطقوس الشاذة، وهي أمور نرى منها عند أبي العتاهية قدراً غير يسير، من اعتزال الناس، ولبس الصوف، وكثـرة البكاء، والقعود إلى الحجامة في أقفاء اليتامى والمساكين، وغير ذلك من الأفكار والنزعات السائدة في شعره.

---

(١) ديوانه ص ٢١٨.

الفصل الثالث: البيئة العقلية

إن التحـولات السياسيـة والإجتمـاعيـة الكبيـرة التي تعرضت لها الحياة العربية في مطلع العصر العباسي وما تلاه كان من الصعب أن تتم بمنأى عن تحولات مماثلة في عقل الإنسان العربي وفكره وثقافته. وإذا كنا سنعتبر الثورة العباسية هي بحق فعل جديد تصاحبه رؤية فكرية جـديدة فـإن من الطبيعي للّغة وللحياة العقلية أن يسايرا هذا التطور في الفعل والرؤية وأن يتقدما نحو المستقبل ويطرحا زاداً علمياً وعقلياً تتسع أبعاده باتساع الزمن الحضاري الجديد الذي يصدر عن روح العصر وقيمه والـذي ينبع من حصـاد ثقافـات مختلفة وأجناس متعددة كانت منتشرة في ذلك الزمان.

وفي غرضنا لاتجاهات الحياة العقلية وما أحرزته من تطور نرى أنه لا بدّ من وقفة قصيرة عند بعض العوامل التي ساعدت على نمو الحياة الثقافية وتطور المناخ العلمي والفكري لتلك الحقبة.

أ ـ العوامل الثقافية

١ ـ الإمتزاج بين الأمم والثقافات.

لقد أدّى توسع الدولة العباسية وشمولها بلاد السند وخراسان وما وراء النهر وإيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب إلى امتزاج عناصر هذه الأجناس بالعنصر العربي امتزاجاً قوياً نتيجة الاتصال والتعامل والتزاوج والمصاهرة. وأسهم في صهرهم في دولة واحدة وأمة واحدة رغم تفاوتهم في التاريخ والثقافة واللغة ورغم انتقال الكثيرين منهم من مواطنهم الأصلية إلى مواطن جديدة. وساعدهم بالتالي على بناء مجتمع جديد وعلى خلق مناخ حضاري وفكري متطور[١].

واستطاعت اللغة العربية في أقل من مائة عام، مع اختلاف الأجناس وتعدد اللغات، أن تفرض نفسها على المواطنين كافة؛ وتمكنت من أن تصبح اللغة الأم لجميع الشعوب الخاضعة للدولة. وإذا كانت اللغة العربية قد قامت بدور هام في توحيد الشعوب وتطوير الحركة الثقافية والفكرية في ذلك العصر فثمة عامل آخر لا يقلّ أهمية عن اللغة وهو تأثير

---

(١) موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي ص ٧٤.

ثقافات هذه الشعوب المختلفة التي تسربت إلى العقلية العربية والفكر العربي وصارت عاملاً مؤثراً فيهما. فالثقافة الهندية انتقلت إلى العرب عن طريق الفرس وعن طريق من دخل الإسلام من الشعوب الهندية واندمجوا في عرب العراق. أما الثقافة الفارسية فكانت أكثر تأثيراً وانتشاراً من غيرها من الثقافات نظراً للامتزاج الوثيق بين العرب والفرس، ولكثرة من دخل الإسلام منهم.. وقد تأثر العرب بكثير من صور حياتهم في الملبس والمأكل والعمارة ونظم الإدارة والتحرر الأخلاقي والإسراف في اللهو والإنطلاق وراء المتع والشهوات. وأما الثقافة اليونانية فانتقلت إلى العرب عن طريق الفرس أولاً وعن طريق الترجمة والنقل ثانياً. يقول ابن النديم في الفهرست: إنّ الفرس نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطب إلى اللغة الفارسية، وإن ابن المقفع نقل ذلك إلى اللسان العربي[1]. ومعروف أن أثر اليونان في الثقافة الإنسانية بصفة عامة أثر عظيم عميق فإذا قلنا أن العرب وقفوا على الفلسفة اليونانية والفكر اليوناني فقد قلنا ضمناً أنهم وقفوا على تراث الإنسانية وآثار الثقافة القديمة والحضارات السابقة بأكملها.

---

(١) عصر المأمون ج ١ ص ١٦٠.

٢ ـ دور العلم وانتشار التعليم.

إنّ عامل العلم وانتشار التعليم من العوامل المهمة التي أعانت في تطور الحركة العلمية والثقافية في ذلك العصر.

ذكر أحمد أمين في كتاب ضحى الإسلام نقلاً عن المقريزي أن المدارس لم تكن تعرف في زمن الصحابة والتابعين؛ وأنها لم تنشأ في العصر العباسي الثاني ولم يبدأ العمل بها إلاّ بعد القرون الأربعة الأولى من الهجرة؛ وكان أول من عُرِفَ بأنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور الذين بنوا المدرسة البيهقية[١].

ولكن قبل ظهور المدارس كانت هناك أماكن مختلفة للتعليم العام أهمّها «الكُتَّاب» والمسجد ويرجّح أحمد أمين أن كلمة «المكتب» كانت تدل هي الأخرى على مكان التعليم شأنها شأن «الكُتَّاب[٢]».

وكان التعليم في الكُتَّاب يمثّل مرحلة أوّلية يُعنى فيها بتعليم الصبية مبادىء القراءة والكتابة، وبعض آيات من القرآن الكريم وشيئاً من الحساب وبعض الأشعار والأمثال. وكانت بعض الكتاتيب تضيف إلى المواد السابقة السُّنن والفرائض

(١) ضحى الإسلام ج ٢ ص ٤٩ ـ ٥٠.
(٢) نفسه ص ٥٠.

والنحو والعروض[1]. وكان بعضها لا يتقاضى أجراً وبعضها الآخر يتقاضى أجراً زهيداً.

وكان في مقابل الكتاتيب العامة معلمون لأبناء الخاصة يعلمونهم اللغة والأخبار والفقه والحديث. وكان هؤلاء المعلمون أيسر حالاً من معلمي الكتاتيب إذ كانوا يتقاضون رواتب كبيرة وخاصة إذا كانوا يعلمون أبناء الخلفاء والوزراء والقواد والسراة؛ ومن أمثال هؤلاء المفضّل الضبي معلم المهدي والكسائي معلم الرشيد وابنيه الأمين والمأمون وغيرهم كثيرون[2].

وعرف من أماكن التعليم الأخرى، غير الكتاتيب، سوق بادية البصرة المعروف «بالمربد» وهو عبارة عن ساحة واسعة يلتقي فيها كل من يريد أن يتزوّد بالمعرفة في شتّى مناحيها. وقد عُرِفَ، من رواد هذا السوق، أبو نواس.

ثم إن المساجد هي الأخرى لم تكن للعبادة وحدها وإنما كانت أماكن للتعليم والقضاء والخطابة ومن تلك المساجد: مسجد عمرو في مصر ومسجد البصرة ومسجد

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٨٠.

(٢) العصر العباسي الأول ص ١٠٠.

الكوفة والحرم والمكي والمدني وغيرها كثير. وكانت عادة التعليم في المساجد مأخوذة عن الرسول ﷺ[1].

وقد ساعدت تلك الحلقات التي كانت تعقد في المساجد على ازدهار الحركة العلمية بحيث زاد عدد العلماء وتنوّعت فروع المعرفة والتخصص. وقد أدى هذا النشاط العلمي الذي نشأ عن ذلك إلى إنشاء حلقات خاصة بالحوار والجدال يثار فيها النقاش في أيّ موضوع علمي يعنّ لأحد من المترددين على هذه الحلقات..

٣ ـ مجالس المناظرة.

وكان من عوامل انتشار العلم والثقافة أيضاً مجالس المناظرة التي كانت تعقد في الدور والقصور وفي المساجد وحضرة الخلفاء. وكان مجال هذنه المناظرات فسيحاً في ذلك العهد لكثرة المسائل التي كانت تطرح ويحتدم حولها النقاش. وتعتبر هذه المجالس من أهم المعاهد لنشر ثقافة العصر لأن الخلفاء كانوا يشجعونها ويدلون بآرائهم فيها فيؤيدون بعض المتناظرين ويعارضون بعضهم الآخر. وهذا ما شجع العلماء في أن يستعدوا لها ويتسلحوا من أجلها بأنواع الغلوم والمعارف طلباً للشهرة ورغبة في نيل الحظوة.

---

(١) معجم الأدباء ج ٤ ص ١٣٥ وضحى الإسلام ج ٢ ص ٥٢.

وقد احتدمت هذه المناظرات على أثر الخلافات التي قامت بين المذاهب الفقهية وبين التيارات الفكرية المتباينة التي حصلت بين البصريين والكوفيين والحجازيين والعراقيين والشاميين والمصريين وغيرهم..

ومن المناظرات المشهورة مناظرة الكسائي الكوفي واليزيدي البصري بين يدي المهدي ومناظرة الكسائي وسيبويه بين يدي الرشيد أو بين يدي خالد بن يحيى البرمكي.. وللسيوطي في كتابه الأشباه والنظائر فصل قيّم في المناظرات والمجالسات والفتاوى والمكاتبات والمراسلات[1].

ومن الخلفاء من كان يبدي اهتماماً كبيراً بهذه المناظرات فيعقد لها المجالس ويثير فيها الجدال حول موضوعات علمية وفقهية؛ وكان المأمون من أكثر الخلفاء تعلقاً بها يدعو إليها ويشارك فيها بالرأي؛ وقد كان واسع الثقافة متعدد المعرفة. فلقد رُوي عنه أنه «لمّا دخل بغداد أمر أن يدخل عليه جماعة من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم فاختير له من الفقهاء لمجالسته مائة رجل، فما زال يختارهم طبقة من

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ج ٣ ص ١٥.

طبقة حتى حصل منهم على عشرة كان بينهم : حسن بن أبي دُواد وبشر المريسي[1]» .

وكـان هدف المـأمون من هـذه المجالس أن تـطرح المسائل الدينية المختلفة بين يديه ويسمع من كل صاحب رأي رأيه ثم يفصل في الآراء المتباينة بعد سماع حجج كل فريق .

٤ ـ المكتبات .

وكان من عوامل نشر العلم والثقافة المهمة المكتبات ، لأن الكتاب هو المستودع الحقيقي للثقافة وهو الحافظ الأمين على رعايتها . وللمكتبات تاريخ قديم في العالم الإسلامي يمتد إلى ما قبل الفتح ؛ فقد كان في الإسكنـدرية مكتبتهـا الشهيرة التي كانت مستودعاً رائعاً للتراث الإنسـاني وكانت تضم في خزائنها ما يقرب من سبعمائة وخمسين ألف مجلّد . وكـان للسريـان فيمـا بين النهـرين مكتبـات عـديـدة تتبـع مدارسهم[2] الكثيرة . وكان كذلك للفرس بمرو خزانة للكتب الفارسية قيل بأن حاكم الفرس يزدجرد هو الذي جمعها وقام برعايتها[3] .

---

(١) ضحى الإسلام ج ٢ ص ٥٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٠ .

(٣) الفهرست ص ٢٤٠ .

أما المكتبات العربية فلم تبدأ في الانْتشار إلاّ في العصر العباسي عندما نشطت حركة التأليف والترجمة وبعد أن ظهرت حرفة الوراقين وعظمت صناعة الورق ومن أشهر المكتبات التي عرفت في ذلك العصر مكتبة «خزانة الحكمة» أو «بيت الحكمة» ويقال: إن الذي أسسها الرشيد ثم نمّاها المأمون من بعده. والمعروف أن خزانة الحكمة كانت المكان الذي تجمع فيه الكتب ويقوم على شؤونها رجال متخصصون. كما كانت تنسخ فيها الكتب اليونانية والفارسية وتنقل إلى العربية. وكان إلى جانب هذه المكتبات العامة يوجد مكتبات أخرى خاصة يقتنيها الخلفاء والأمراء والأغنياء والعلماء والأدباء. يقول ثعلب: «رأيت لإسحاق الموصلي ألف جزء من لغات العرب وكلها سماعه»[1].

الترجمة والنقل.

أمّا الترجمة فكانت هي الأخرى من العوامل الفعّالة في دفع حركة النشاط العلمي والثقافي في تلك المرحلة. وكلنا يعلم أهميةِ هذا العامل ومكانته في ازدهار الفكر وتطوره والمتتبّع لهذه الحركة يرى أنها بدأت في العصر الأموي بشكل محدود ثم تطورت بعد ذلك في العصر العباسي تطوراً كبيراً؛

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٩٢.

فلقد ترجمت في العصر الأموي بعض كتب في الصنعة والطب والنجوم؛ وقيل أن عمراً بن عبد العزيز أمر بترجمة كتاب في الطب وأن كتاباً آخر في تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية ترجم لهشام بن عبد الملك[1].

ولكن ما إن جاء العصر العباسي وتولّى المنصور الحكم حتى بدأت الترجمة تأخذ شكلاً أكثر فاعلية؛ يقول المسعودي عن المنصور «.. وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية ومنها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند، وترجمت له كتب أرسطو طاليس من المنطقيات وغيرها وترجم له كتاب المجسطي لبطليموس وكتاب الأرثماطيقي وكتاب أوقليدس[2]». وقد عرفنا مما سبق أن خزانة الحكمة في عهد الرشيد كانت تقوم ضمن أعمالها بالترجمة وكان يقوم على هذا يوحنا بن ماسويه. وكان للبرامكة كذلك نشاط واضح في هذا المجال فقد شجّعوا على ترجمة العديد من الكتب المؤلفة بالرومية واليونانية والفارسية والهندية ونقلها إلى اللغة العربية.

أما في عهد المأمون فتبلغ الترجمة أقصى درجات

---

(١) الفهرست ص ٣٤٠ والبيان والتبيين ج ١ ص ٣٢٨.
(٢) المسعودي ج ٤ ص ٤١ .

نشاطها؛ فقد حوّل خزانة الحكمة إلى معهد علمي كبير يهتم إلى جانب اقتناء الكتب والإهتمام بها بالترجمة. يقول ابن النديم: «ولمّا غلب المأمون على ملك الروم كتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة والمدّخرة ببلاد الروم، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فاخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلمّا حملوه إليه أمرهم بنقله فَنُقِلَ. وقد قيل: إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم[1]».

ومما يذكر لهؤلاء المترجمين أنهم نقلوا مجموعة من أنفس الكتب اليونانية. فقد نقل الحجاج بن مطر كتاب الأصول في الهندسة لأوقليدس وكتاب المجسطي لبطليموس وأمّا يحيى بن البطريق فقد ترجم لأفلاطون قصة طيماوس وترجم لأرسطو مختصراً في النفس وكتاب الترياق لجالينوس[2]. وكان من المترجمين أيضاً عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصي (ت ٢٢٠ هـ) وقد اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسطو، وتُرْجِمَ بالإضافة إلى الكتب

---

(١) الفهرست ص ٣٣٩.

(٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٢٢ والعصر العباسي الأول ص ١١٤.

المذكورة سيول كثيرة من تراث اليونان والفرس والهند حتى ليكاد يظن الإنسان أنه لم يبق شيء من هذا التراث لم ينقل إلى العربية سواء منه ما اتصل بالعلوم أو ما اتصل بالصناعات أو ما اتصل بالعجائب والأسمار والخرافات أو ما اتصل بالملل والنحل».

وكانت الفلسفة اليونانية والمعارف العلمية أعظم ما حملت هذه السيول، وقد مضى العقل العربي يسيغهما ويتمثلهما ويضيف إليهما إضافات باهرة. والمتكلمون ـ وفي مقدمتهم المعتزلة ـ هم أهم من تعمّقوا الفلسفة بجميع شعبها ودقائقها؛ وقد عرضوها على بساط البحث واستطاعوا أن ينفذوا إلى كثير من النظريات والأفكار والآراء التي لم يسبقهم إليها سابق.

وعلى هذا النحو أصبح العقل العربي في العصر العباسي الأول عقلاً متفلسفاً كما أصبح عقلاً علمياً لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل من حيث إسهامه فيها وإضافاته الجديدة حتى ليضيف علوماً لأول مرة في تاريخ الحضارة الإنسانية كعلم الجبر الذي أضافه الخوارزمي[1].

---

(١) العصر العباسي الأول ص ١١٧.

ب ـ أوجه النشاط العلمي.

لا شك أن أبا العتاهية تأثّر بهذه الثقافات المنقولة وأفاد منها ولم يكن وحده في هذا الباب وإنما تأثر بها كثيرون غيره من الشعراء والأدباء[1]؛ والواقع أن العرب تأثروا كثيراً ـ كما ذكرنا ـ بالأمم التي فتحوها وبثقافتها وخاصة بعد انتقال الخلافة إلى العراق. حيث كان الإحتكاك قوياً والتفاعل شديداً لقرب مراكز النشاط الإسلامية مثل بغداد والكوفة والبصرة، من مراكز النشاط القديمة فيما حولها مثل الرّها ونصيبين وَحران وإنطاكية وجنديسابور والحيرة، فأفادوا من العلماء الذين كانوا يقيمون في هذه المراكز، بحيث تمت أغلب النقول في هذا العصر على أيدي أسرات وأفراد ينتمون إلى ملل مختلفة، من نصرانية وبوذية وصابئة وثنوية، اشتهروا بالتخصص في الترجمة لمهارتهم في اللغات المنقول منها بجانب اللغة العربية[2]، فكان من الطبيعي أن تنتقل مختلف الأفكار والمعتقدات إلى الإسلام وألّا يقف تأثير هذا كله عند انتقال

---

(١) ضحى الإسلام الباب الثاني والجزء الأول والفن ومذاهبه في الشعر طبعة ١٩٦٠ ص ١١٧ ـ ١٤١ خاصة.

(٢) انظر الفهرست ص ٣٥٤ ـ ٣٥٦ حيث يذكر طائفة كبيرة منهم وكذلك القفطي وابن أبي أصيبعة في أماكن مختلفة.

ألفاظ أجنبية إلى العربية وانتقال أفكار وفلسفات وحكم ومواد أخرى، بل يتغلغل التأثير إلى طريقة التفكير ذاتها فتغيرت النظرة العقلية إلى الحياة بفعل الفلسفة، كما تغيرت أساليب التفكير ومناهج التأليف، والكلام، وخضعت لكثير من القواعد المنظمة والأصول المنطقية، وظهرت إلى جانب المؤلفات العلمية المتخصصة مؤلفات في النثر الذي نشأ في هذا العصر وفي الأدب وأصوله وفي النقد الأدبي وكل ذلك يدل على تقدم ملحوظ في تطور العقلية.

يقول سيديو: «كان العرب وحدهم حاملين لواء الحضارة في القرون الوسطى فدحروا بربرية أوروبا التي زلزلتها غارات قبائل الشمال. وسار العرب إلى منابع فلسفة اليونان الخالدة. فلم يقفوا عند ما اكتسبوه من كنوز المعرفة بل وسعوه وفتحوا أبواباً جديدة لدرس الطبيعة»[1]. وهذه العبارة تلخص في صدق ما كان للعرب في هذا العصر من قريحة خالقة وعقلية متطورة مجددة تسير في اتجاه التخصص الباني لأسس الحضارة الإنسانية في مختلف فروع المعرفة. وبرزت في هذا العصر أسماء علماء في هذه الفروع من العرب والموالي على السواء كانوا أصحاب فضل كبير على من جاء

(١) تاريخ العرب العام ص ٢٨٣.

بعدهم في الميادين المختلفة من الحضارة العربية في العصور المتوسطة والحضارة الأوروبية في العصر الحديث.

فإذا تجاوزنا عن جابر بن حيان وما يثار حول شخصيته وما ألَّف من مؤلفات يدهش الإنسان لكثرتها[1]، وجدنا من عظماء المعرفة العلمية محمد بن موسى الخوارزمي صاحب الفضل الأكبر في علمي الحساب والجبر وصاحب البحوث المبتكرة في الفلك والجغرافيا والتاريخ والموسيقى[2].

وأمّا في الفلسفة فإن الفيلسوف العربي الكندي يعتبر نتاج هذا العصر، وكتبه في الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والنجوم والموسيقى وغيرها رائعة حقاً[3]. وقد خلصت الفلسفة اليونانية في هذا العصر من شوائب الأوهام والأباطيل والخيالات بفضل عقول المسلمين المتفتحة الفاحصة التي درست القضايا والمشكلات الفلسفية في ضوء من فهمهم الواعي للإسلام وأصوله وينبغي ألاّ نغفل فضل المعتزلة في هذا المقام وجهودهم في المحاماة عن الدين الإسلامي ضد أعدائه ودفع البدع والشوائب الدخيلة عن أن

---

(١) انظر الفهرست ص ٥١٤ وما بعدها.

(٢) انظر العلوم عند العرب ص ٩٧ ـ ١٠٣.

(٣) الفهرست ص ٣٧١ ـ ٣٧٩.

تعلق به حينما حاربوا الثنوية والمشبهة والجبرية[1]؛ ولمع من زعمائهم في هذا العصر أبو الهذيل العلاف وإبراهيم النظام وبشر بن المعتمر وثمامة بن أشرس وأحمد بن أبي دؤاد وبشر المريسي ثم الجاحظ. وآزر هؤلاء المتكلمين علماء الفقه الإسلامي التقاة الورعون الذين اختلف منهجهم عن منهج الفلاسفة والتمكلمين حين اعتمدوا على القرآن والحديث والإجتهاد والقياس وابتعدوا عن البحث في الماهيات الميتافيزيقية ونضجت على أيديهم العلوم الدينية منهجاً ومادة بحيث استقل علم الحديث وأصبح التأليف فيه قائماً برأسه وانفصلت عنه العلوم التي كانت عالة عليه من تفسير وتشريع وتاريخ.

وفي هذا العصر نشط علماء اللغة والأدب في تقليد علماء الحديث والتاريخ وخاصة في نقد الرجال وتشريحهم فشرح أبو عبيدة وقطرب وحماد وخلف[2] وألفت كتب التراجم وأخبار الشعراء؛ فيذكر ابن النديم للمدائني (ت ٢١٥ هـ) مثلاً ثلاثين كتاباً في هذا الباب كانت هي وغيرها أساس المادة التي وصلت إلينا عن هذا العصر وما سبقه.

---

(١) تاريخ الفلسفة العربية للفاخوري ج ١ ص ١٦٤ وتاريخ الفرق الإسلامية للغرابي ص ٩٣ طبعة ١٩٤٨ م.

(٢) ضحى الإسلام ج ٢ ص ٣٥٣.

ومنذ مطلع القرن الثاني أخذ العلماء يدونون المؤلفات يجمعون فيها اللغة وآدابها؛ ووجد علماء مختصون في رواية اللغة وآخرون في رواية الشعر وفي علم النحو بيد أن التخصص لم يكن كاملاً فكثير من العلماء كان يعنى بهذه الفروع جميعاً. وأكبرهم فضلاً في رواية اللغة والأدب أبو عبيدة معمر بن المثنّى، والأصمعي، وأبو زيد الأنصاري والجميع أخذوا عن أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة؛ ويمكن أن نلحق بالثلاثة أبا عبيد القاسم بن سلام، وكان ابن الأعرابي كذلك من كبار رواة الشعر وقد وصلت إلينا طائفة طيبة من كتبهم الثمينة؛ كما اشتهر برواية الشعر خاصة حماد الراوية والمفضّل الضبي وخلف الأحمر وأبو عمرو الشيباني ومحمد بن سلام ويعتبر الخليل بن أحمد الفراهيدي قمة سامقة لهذا العصر في علوم اللغة والنحو والعروض وأكمل عمله الرائع في جمع اللغة وتدوينها تلاميذه: كالنضر بن شميل ومؤرخ السدوسي ونصر بن علي الجهضمي[١]. وكان للخلاف والتنافس بين البصريين والكوفيين[٢] في ميدان النحو

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٧٣.

(٢) انظر في الخلاف: ابن الأنباري في كتاب الإنصاف وأخبار طبقات النحويين للسيرافي وبغية الوعاة للسيوطي.

أكبر الأثر في نمو بحوثه وارتقائها؛ وأعظم نتاج وصل إلينا من هذا الطور «الكتاب» لسيبويه تلميذ الخليل. وبعد هذا الطور بدأت مباحث النحو تأخذ منهجاً جديداً ينحو نحو الخلط بين مذهبي الكوفة والبصرة وتكوّن في بغداد المذهب البغدادي.

وتطور النقد الأدبي على أيدي علماء اللغة والنحو والمتكلّمين والأدباء؛ وخضعت الأحكام لنظرة علمية تعتمد على مقاييس نقدية لتقدير الأدب ووزنه؛ وَوُضِعَتْ المصطلحات البلاغية نتيجة الإتصال بالثقافات الأجنبية مع المحافظة على شخصية البيان العربية. ويوضح كتاب طبقات الشعراء لابن سلام العمل الجليل في تحقيق رواية الشعر القديم واختيار الرواة وانتقاء المتن. وحاول الأدباء تذوق الأدب عن طريق النفاذ إلى سرّ جماله وجودته ونجاحه واعتبار العامل الإجتماعي في نقدهم وما حدث من تطور جديد[1].

---

(١) انظر النقد الأدبي للدكتور شوقي ضيف ص ٤١ ـ ٥٠.

الفصل الرابع: حياة أبي العتاهية

ولادته وأصله ولقبه:

ولد، أبو العتاهية، ونشأ، ومات في إقليم واحد، وإن اختلفت به الأماكن من بلد إلى بلد، اختلافاً ليس بعيد الشقة. والإقليم الذي نتحدث عنه هو العراق. ذو الحضارات القديمة والأراضي الخصيبة والسهول المنبسطة والأنهار المتشابكة والجو المعتدل والخيرات الوفيرة.. قامت فيه حضارات السومريين والكلدانيين؛ ومرت به حضارات الفرس واليونان؛ فقامت على آثار هذه الحضارات المتفاعلة حضارة العرب التي وجدت تراثاً كبيراً ما لبثت أن أذابته وتمثّلت زبدته وقامت شامخة كالطود راسخة كالجبل الأشم. على أن كثيراً من الشوائب الغريبة التي لم تتمثلها حضارة العرب ولفظتها أصول الإسلام، كانت لا تلبث أن تطفو بين الحين والحين في هذا المجتمع الجديد.

وتكاد تجمع معظم الروايات التي لدينا على أن أبا العتاهية ولد في بلدة «عين التمر» وإليها نسبته «العيني» هذا إذا

ما استثنينا رواية صاحب الأغاني التي يقول فيها: «الكوفة هي بلده وبلد آبائه؛ بها مولده ومنشؤه وباديته»[1]. . فربما قرب العهد بين مولده وحمله إلى الكوفة هو الذي سمح لصاحب الأغاني أن يقول مثل ذلك أو ربما لأن «عين التمر» كانت تابعة للكوفة ومن أعمالها والمسافة بينهما قصيرة[2]، فاكتفى بذكر التابع عن المتبوع.

كانت تقع «عين التمر» التي ولد فيها الشاعر في بادية الجزيرة بين الأنبار شمالاً والحيرة جنوباً وهي أقرب إلى الأنبار منها إلى الحيرة وبذلك تقع إلى الغرب من نهر الفرات وعلى هذا يجمع جمهور المصنّفين[3]. وكان لهذه القريـة أهمية خاصة بالنسبة لموقعها على الحدود المتقدمة لبادية الشام، بحيث كانت تعتبر مركزاً لتموين القوافل[4]، لكثرة التمر فيها، كثرة منحتها هذا الإسم[5]. ويتصل بأهميتها أيضاً أنه يشار

---

(١) الأغاني طبع بيروت ج ٤ ص ٥ سنة ١٩٥٦ م.

(٢) انظر المقدسي، أحسن التقاسيم طبع بريل ليدن ١٨٧٧ ص ١١٤.

(٣) الاصطخري: مسالك الممالك ليدن ص ٢٣ ـ البكري: معجم ما استعجم ط. القاهرة ١٩٤٥ ج ١ ص ٣١٩. ياقوت؛ معجم البلدان ط الخانجي ١٩٠٦ ج ٦ ص ٢٥٣ ومعجم الأدباء ج ١٨ ص ٥ والمقدسي أحسن التقاسيم ليدن ج ١١٤ ص ١١٧.

(٤) Encyel. of Islam, art; Ain – el – Tamr.

(٥) معجم البلدان ج ٦ ص ٢٥٣.

إليها إشارة خاصة في بعض الأحداث التاريخية التي وقعت في الجاهلية وصدر الإسلام؛ كما ينسب إليها مواقع بعض البلدان والأماكن والقصور التي كانت تحيط بها[1]. بل لقد كانت مقراً لإياس الطائي عامل كسرى أبرويز عليها وعلى ما والاها إلى الحيرة[2]. وكان فيها كنيسة خاصة بأهلها وبمن حولها من النصارى[3]. ويقال أن كيسان جد أبي العتاهية كان من السبي الموجود فيها ولا سيما عندما كان صغيراً[4].

كان أبو العتاهية ينتمي إلى النبط الذين عاشوا في أرض العراق منذ عهد قديم وكانوا على اتصال وثيق بالعرب والفرس؛ وهم قوم يتمتعون بحظ وافر من الذكاء ورهافة الحس ورقة الشعور. وبسبب هؤلاء الآباء انتقل إليه الشعور بالضعة والضعف الذي كان يعمل في قرارة نفسه منذ درج على الأرض؛ وربما هذا الذي سببت له الإفراط في العبث والمجون والتهتك ثم محاولة أن يسلك طريق الزهد والحرمان فيما بعد.

إنّ رهافة حسه سببت له الضعف في صحته والرقة في

---

(١) أنظر أغاني ساسي ج ١٤ ص ٧١.
(٢) السابق نفسه.
(٣) معجم ما استعجم ج ١ ص ٣١٩.
(٤) أغاني بيروت ج ٤ ص ٥.

تكوينه الجسدي. روى أبو الفرج عن محمد بن موسى قال: «كان أبو العتاهية قضيفاً (أي دقيق العظم قليل اللحم) أبيض اللون أسود الشعر، له وفرة جعدة، وهيئة حسنة ولباقة وحصافة»[1].

ووصفه المسعودي فقال: «وكان أبو العتاهية مليح الوجه، مليح الحركات، حلو الإنشاد شديد الطرب»[2].

وكان لتلك المجموعة من الصفات التي رواها المؤرخون أهمية خاصة لأنها تعين على فهم شخصيته، التي إذا استثنينا فيها ضعف بنيته، وجدنا أنه إنسان موهوب حبته الطبيعة بسمات متعددة قلّما تجتمع معاً في فرد واحد، ومثل هذه الصفات الجسمية انحدرت إليه من آبائه السالفين.

أمّا تاريخ ولادته فيحدده ابنه محمد بسنة ١٣٠ هـ. وكان هذا التاريخ ـ كما هو معروف ـ بداية تحول كبير في حياة الأمة الإسلامية. وقد نشأ الشاعر وعاش في جو هذا التحول فتأثّر به وكان له انعكاس كبير على حياته الفكرية والأدبية. بيد أننا لا نعلم شيئاً عن حياته في المكان الذي ولد فيه ولا أحسبه لبث

---

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ١٠.
(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٣٦٠.

هناك كثيراً لأن الأخبار تشير إلى أن أباه نقله إلى الكوفة[1] في أول طفولته.

ولكن قبل الحديث عن تطور حياته وعن نبوغه الشعري لا بدّ من أن نشير إلى لقبه الذي اشتهر به وظل ملازماً له طوال حياته وبعدها؛ وأثبته له المصنفون دون اسمه الحقيقي وهو إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان ودون كنيته «أبو إسحاق». والذي يثير اهتمامنا هو كلمة «أبو العتاهية» هل هي لقب أم كنية؟.

إن بعض الشعراء يرونها كنية وعلى هذا الأساس هجاه أبو قابوس النصراني فقال:

قل للمكنّي نفسه ... متخيراً بعتاهية
والمرسل الكلم القبيـ ... ـح وعته أذن واعية
إن كنت سراً سؤتني ... أو كان ذاك علانية
فعليك لعنة ذي الجلا ... ل وأم زيد زانية[2]

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٦٠.
(٢) أغاني بيروت ج ٤ ص ١١.

إن لفظة عتاهية هذه كانت مستعملة اسماً بصرف النظر عما تحمله من معان، فهناك والي مصر كان اسمه حسان بن عتاهية بن عبد الرحمن بن حسان بن عتاهية[1]. وأبو العتاهية نفسه كان له ولد يدعى عتاهية؛ ولكن مع كل الذي ذكرناه فإن هذه اللفظة لم تكن له لا كنية ولا اسماً لأننا نراه يثور ويتنكر لها ويكره أن يُنادى بها. وهذه الكلمة هي في الحقيقة خليقة بأن يتنكّر لها لأنها تنطوي على معاني التعته والدهش والمعتوه المدهوش من غير مسّ جنون. وقيل: المعتوه الناقص العقل، ورجل معتّه إذا كان مجنوناً مضطرباً في خلقه. وعته فلان في العلم إذا أُولع به وحرص عليه. والعتاهية مصدر عته. والعتاهة والعتاهية ضلال الناس، والتعته المبالغة في الملبس والمأكل؛ وتعته فلان بالغ وتعته تنظف[2]؛ فاللفظ كما نرى يحمل معاني كثيرة أغلبها لا يقبله الإنسان وصفاً له، ومن هنا كان خليقاً بأبي العتاهية أو أبي إسحاق أن يرده ويرفض النداء به في ثورة لأنه ليس اسماً كما أنه ليس كنية.

يقول ابن منظور: «وأبو العتاهية الشاعر المعروف ذُكِرَ أنه كان له ولد يقال له عتاهية وقيل لو كان الأمر كذلك لقيل أبو

(١) الولاة والقضاة للكندي ط. بيروت ١٩٠٨ م ص ٨٥.
(٢) لسان العرب والقاموس المحيط مادة: عته.

العتاهية بغير تعريف وإنما هو لقب له لا كنية وكنيته أبو إسحاق واسمه اسماعيل بن القاسم[1]».

وقال في موضع آخر: «ولُقِّب بذلك لأن المهدي قال له: أراك متخلّطاً متعتهاً وكان قد تعته بجارية للمهدي، واعتقل بسببها، وعرض عليها المهدي أن يزوجها له فأبت، واسم الجارية عتبة. وقيل: لقب بذلك لأنه كان طويلاً مضطرباً. وقيل: لأنه يرمى بالزندقة[2]. ولأنه كان يحب الشهوة والمجون والتعته[3]».

ومعنى هذا أن هذا اللقب أطلق عليه على لسان المهدي وأصاب في إطلاقه من الشاعر سمات خَلْقِية وخُلُقِية ومذهبية، إذ دلّ دلالة قوية على طوله واضطرابه وتخلّطه ومجونه وحبه للشهوة وتعتهه بحب عتبة، وزندقته.

وهذا اللقب أطلق عليه ـ كما هو مؤكد ـ في بغداد وإن الذي يثبت هذا هو ما يرويه صاحب الأغاني من تراشق الشاعر هو ووالبة بن الحباب بالهجاء في بغداد وفرار والبة من الميدان[4] بتركه بغداد وعودته إلى الكوفة بعد أن قال في أبي العتاهية:

---

(١) لسان العرب.

(٢) السابق.

(٣) أغاني بيروت ج ٤ ص ٥.

(٤) أغاني ساسي ج ١٦ ص ١١٤.

كـان فـينـا يـكنّـى أبـا إسـحـاق
وبـهـا الـركب سـار في الآفـاق
فـتـكـنّـى مـعـتـوهـاً بـعـتـاه
يـا لـهـا كـنـيـة أتـت بـاتـفـاق
خـلق الله لـحـيـة لـك لا تـنـفـ
ـك مـعـقـودة بـداء الـحـلاق[1]

ففي هذه الأبيات دليل آخر على أن أبا العتاهية كان يكنّى أبا إسحاق بين أصدقائه في الكوفة. وكان منهم بطبيعة الحال والبة بن الحباب، حيث كان يتنادم معهم الشراب والمجانة وقول الشعر الخليع المكشوف. ولمّا أُطلق عليه لقب (أبو العتاهية) في بغداد وافق منه ماضيه وحاضره في التهتك والخلاعة وحب الشهوة؛ وأتى متفقاً مع كثير من سماته بحيث عفى على كنيته القديمة «أبي إسحاق» وأصبح لقبه الجديد في بغداد. يطلق عليه دلالة على تعتهه وتخلّطه ومجونه.

ب ـ نشأته وجوانب من حياته:

ذكرنا سابقاً أن أبا العتاهية انتقل من عين التمر إلى الكوفة صغيراً أو هو حُمِلَ إليها مع أبيه وأهله وهناك أقام ونشأ.

---

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ١١.

كانت نشأته الأولى وضيعة فهـو مولى نبـطي؛ وضيع الأصل وضيع النشأة على الرغم من رواية ابنه محمد الذي يحاول فيها أن يجعل لنفسه ولأبيه أصالة في النسب العربي[١] فيشرف بذلك نسبه ويدرك منزلة اجتماعيـة أخرى، ويـظفر بحماية القبيلة التي ينتسب إليها هو وأهله. والواقع أن الناس لم يعاملوا أبا العتاهية إلاّ على أنه مولى نبطي حين نرى جزاراً يضربه ويضمّخه بالدماء[٢] فينزل به الأذى والهوان.

ويذكر الصولي أن أبا العتـاهية كـان مولى لعـطاء بن محجن العنزي ويشير إلى أن أباه كان حجاماً[٣]. فهو مولى نبطي؛ ولاؤه من قبل أبيه لعنزة ومن قبل أمه لبني زهرة[٤]، وأما زوجته فكانت هـاشمية بنت عمـرو اليمامي مـولى معن بن زائدة[٥].

وَيُظْهِر وضاعة نشأته نوع العمل الذي كان يمارسه وهو صناعة الفخار وبيع الجرار. يقول أبـو الفرج الأصفهـاني: «وكان أبو العتاهية في أول أمره يتخنث ويحمل زاملة المخنثين

---

(١) انظر هذه الرواية في أغاني بيروت ج ٤ ص ٥.
(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٥ و٦.
(٣) السابق ج ٤ ص ٦.
(٤) السابق ج ٤ ص ٣ و٦.
(٥) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٣٥.

ثم كان يبيع الفخار بالكوفة ثم قال الشعر فبرع فيه وتقدم[1]».

فالعمل اليدوي في مهنة كهذه كان أمراً مشيناً لا يليق بذوي الأحساب والأنساب. وأبو العتاهية كان يحاول أن يتحرر من أسار هذه الضعة وربقة ذلك الذل حينما يقول: «أنا جرار القوافي وأخي جرار التجارة[2]» ولكنها محاولة لا تمسح عنه أدران ما كان يعانيه. ولعل تركه هذه الحرفة كان متأخراً بعد أن وسع الله عليه وعلى أخيه زيد في الرزق. ولكن الذي لا شك فيه أنه بدأ بصنع الجرار التي كان يحملها ويدور بها مبتغياً بيعها.

حدّث أبو الفرج قال: «اجتاز أبو العتاهية في أول أمره وعلى ظهره قفص فيه فخار يدور به في الكوفة ويبيع منه، فمرَّ بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر ويتناشدونه فسلّم ووضع القفص عن ظهره ثم قال: يا فتيان، أراكم تتذاكرون الشعر فأقول شيئاً منه فتجيزونه فإن فعلتم فلكم عشرة دراهم وإن لم تفعلوا فعليكم عشرة دراهم فهزئوا منه وسخروا به وقالوا: لا بد أن يُشْتَرى بأحد القمارين رطب يُؤكل فإنه قمار حاصل وجعل رهنه تحت يد أحدهم ففعلوا فقال أجيزوا:

---

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٤.

(٢) أغاني بيروت ج ٤ ص ١٠ و١١.

ســاكــنـي الأجــداث أنــتــم . . .

وجعل بينه وبينهم وقتاً في ذلك الموضع إذا بلغته الشمس ولم يجيزوا البيت، غرموا الخطر، وجعل يهزأ بهم وتممه:

. . . مـثـلنـا بـالأمس كـنـتـم

لـيـت شـعـري مـا صـنـعـتـم

أربـحـتـم أم خـسـرتـم

وهي قصيدة طويلة في شعره[1]».

فهذا النص يدلنا على أول نبوغ له في الشعر كما يدلنا على أول موضوع طرقه. وفيه دلالة أخرى على نشأته الوضيعة حين كان يحمل قفص الجرار على ظهره ليدور به في شوارع الكوفة منشداً أشعاره حتى اشتهر.

ويروي حفيده أبا سويد عبد القوي بن محمد بن أبي العتاهية أن جده كان: «يهوى في حداثته امرأة نائحة من أهل الحيرة لها حسن وجمال يقال لها: سعدى وكان عبد الله بن معن بن زائدة المكنّى بأبي الفضل يهواها أيضاً وكانت مولاةً لهم ثم اتهمها أبو العتاهية بالنساء[2]». ويبدو أن تفكيره في

---

(١) السابق ج ٤ ص ٤٩.

(٢) أغاني بيروت ج ٤ ص ٢٦.

الموت نشأ منذ ذلك الوقت ولعل اتصاله بسعدى هذه كـان من الدوافع القوية التي حثّت هذا التفكير عنده؛ ولعله أيضاً كان ينظم لها الشعر في الموت لتنوح به على من يموت؛ ودامت علاقته بها زمناً طويلاً إلى أن حدث الخلاف بينهما وهجاها.

وله في سعدى هذه شعر يفحش فيه إفحاشاً قبيحاً مما أثار مولاها فنهاه عن التعرّض لها[1]. ولكن يبدو أنه لم ينتهِ وظل يشبب بها فغضب لها مواليها وضربوه مائة سوط[2] فهجاهم هجاءً مقذعاً[3]، جاء فيه:

ضـــربتني بـكـفـهــا بـنـت مـعـن
أوجـعـت كـفــاهـــا ومــا أوجعـتنـي

ولـعـمـــري لـــولا أذى كـــفـهـــا إذ
ضـــربتني بـالســـوط مـا تـــركتني[4]

ولعله على أثر تلك الحادثة ترك الكوفة وذهب إلى بغداد وأقام فيها وكان ذلك في خلافة المهدي (١٥٨ - ١٦٩). ولا تعين الروايات على تحديد عمره حينذاك بالضبط ولكن قصته مع وزير المهدي أبي عبد الله (وزارته ١٥٨ - ١٦٣ هـ) يمكن

---

(١) السابق ط ساسي ج ١٤ ص ٥٤.
(٢) السابق نفسه ج ١٤ ص ٥٣.
(٣) السابق ج ١٤ ص ٥٤ - ٥٦.
(٤) أغاني بيروت ج ٤ ص ٢٧.

أن تحدد عمره بين الثامنة والعشرين والثالثة والثلاثين[١].
وأينما حلّ الشاعر كان الخوف والقلق والإضطراب النفسي يلاحقه ولهذا رأيناه يتخبط في الإنتساب إلى أناس يتولاهم ليدرأوا عنه الضر الذي يحيط ويتربص له في كل مكان؛ فهو مرة مولى عطاء بن محجن العنزي وأخرى مولى لعبادة بن رفاعة العنزي وثالثة لمندل وحيان ابني علي العنزيين[٢]. وإذا ما ترك الكوفة إلى بغداد انتقل معه الخوف إليها وبعدت به الشقة عن جوار هؤلاء من عنزة لذلك نجده يندفع في طلب الحماية بأن يتولى قوماً سواهم ممن يتمتعون بالمنعة والعزة.
روى الزبير بن بكار قال: «لما حَبَسَ المهدي أبا العتاهية تكلم فيه يزيد بن منصور الحميري حتى أطلقه فقال فيه أبو العتاهية:

ما قلت في فضله شيئاً لأمدحه
إلّا وفضل يزيد فوق ما قلت

ما زلت من ريب دهري خائفاً وجلا
فقد كفاني بعد الله ما خفت[٣]

فخوفه من الدهر الذي يتربص به لهوان شأنه ووضاعة أصله وفساد مذهبه جعله يرتمي في كنف هؤلاء اليمانية أخوال

(١) انظر قصته مع هذا الوزير في أغاني بيروت ج ٤ ص ٥٨.
(٢) مقدمة الديوان.
(٣) أغاني بيروت ج ٤ ص ٤٢.

الخليفة المهدي، وليس يهم أن يتنصّل من ولائه لعنزة إذ لم يعد في حاجة إليهم في بغداد.

ولأبي العتاهية شعر يمدح فيه اليمانية أخوال المهدي ومن ذلك قوله:

سُقِيتَ الغيث يا قصر السلام
فنعم محلة الملك الهمام
لقد نشر الإله عليك نوراً
وحفّك بالملائكة الكرام
سأشكر نعمة المهدي حتى
تدور عليّ دائرة الحمام
له بيتان بيت تبّعي
وبيت حل بالبيت الحرام

وعندما توفي يزيد بن منصور الذي كان يتعصب لأبي العتاهية ويحميه رثاه الشاعر بشعر حزين قال فيه:

أنعي يزيد بن منصور إلى البشر
أنعي يزيد لأهل البدو والحضر
يا ساكن الحفرة المهجورة ساكنها
بعد المقاصر والأبواب والحجر
وجدت فقدك في مالي وفي نشبي
وجدْت فقدك في شعري وفي بشري

فلست أدري جــزاك الله صــالحــة
أمنظري اليوم أسوأ فيك أم خبري[1]

ولكن بعد وفاة يزيد لم يجد الشاعر من يفزع إليه من الخوف فاضطر أن يعود إلى ولائه الأول لبني عنزة.

وعندما قَدِمَ الشاعر إلى بغداد ظل يمارس المجون بشتى صنوفه ومختلف أنواعه ونجد من صحبه في أماكن عبثه ولهوه أبا نواس وسلماً الخاسر والحسين الخليع ومسلم بن الوليد ومخارقاً وإبراهيم الموصلي وأبا الشمقمق ومن على شاكلتهم من العــابثين المــاجنين الــذين كــانــوا يجتمعــون في بيت القراطيسي أو بيت ابن أُذين أو غيرهما. والقراطيسي هذا هو إسماعيل بن معمر الكوفي. قال عنه صاحب الأغاني أنـه: «كان مألفاً للشعراء، فكان أبو نـواس وأبو العتاهية ومسلم وطبقتهم يقصدون منزله ويجتمعون عنده، ويقصفون، ويدعو لهم القيان وغيرهن من الغلمان. وإياه يعني أبو العتاهية بقوله:

لــقــد أمــســى الـقــراطــيــســي
رئــيــســاً فــي الـكــشــاحــيــن[2]

ويسرف أبو العتاهية في العكوف على اللذات والحرص

---

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٣٤.

(٢) أغاني ساسي ج ٢٠ ص ٨٩.

عليها حتى إننا نجده مشغولاً بها وهو في حبس المهدي، ولهذا نراه يقول:

ذريني أعلل نفسي اليوم إنها
رهينة رمس في ثرى وجنادل
ذريني أعلل بالشراب فقد أرى
بقية عيشي هذه غير طائل[1]

وقد قيل إن الشاعر أظهر الزهادة ليخدع الجميع عن حقيقة أمره وحقيقة مذهبه وهذا لم يكن خافياً على كثير من الناس ولا على الخليفة نفسه الذي أطلق عليه لقب (أبو العتاهية) لما رآه متعتهاً مدخول المذهب فاسد العقيدة مضطرب الرأي. وقصة غرامه بمعشوقته عتبة ليست إلّا مظهراً من مظاهر هذا التخلط والاضطراب في حياته وهي تدل على غرامه بالعبث والمجون. ويبدو أن أبا العتاهية كان يريد أن يتصل ذكره، عن طريق تشبيبه بعتبة، بمسمع الخليفة المهدي فجعل يستعين ببعض أصدقائه ممن يعملون في البلاط مثل يزيد حوراء المغنّي الذي كلّمه أبو العتاهية أكثر من مرة كي يذكره عند المهدي ولكن هذا الأخير طلب إليه أن يضع شعراً في عتبة يغنّي به المهدي. وقد كان أبو العتاهية يزيد أن يتزوج

(١) السابق ج ٥ ص ٥.

بعتبة ولكن عتبة رفضته وتعلّلت بأن مولاتها تكره ذلك فكان جواب المهدي ما كنت لافعل شيئاً تكرهه[1].

والذي يتتبع قصة غرام أبي العتاهية بعتبة يكاد في بعض الأحيان يصدق إخلاصه وتدلهه في هذا الفرام؛ لأننا نراه يسأل المهدي ويعيد السؤال ويلح فيه ويتوصل إليه بوسائل مختلفة. ثم نراه يتحمل صنوفاً من الألم وضروباً من العذاب؛ فمرة نجد الخليفة ينفيه عن بغداد إلى الكوفة ولكنه يظل يشبب بها ويكنّي باسمها في غير تصريح ومرة أخرى نراه وقد ضرب بالسياط من أجلها لأنه لم ينتهِ عن وصفها والتشهير بها[2]. ونراه مرة ثالثة وقد أُدْخِلَ إلى السجن[3] يذوق فيه العذاب والهوان من أجلها.

ونرجّح أنه أحبها حباً شديداً مخلصاً في وقت من الأوقات بعد أن أدرك مآربه وحقق منافعه ـ في الوصول إلى بلاط المهدي ـ فأراد بحق أن يظفر بها ولكنها رفضته؛ ومما يثبت ذلك ما رواه أبو العباس يحيى بن ثعلب حين قال: «كان أبو العتاهية قد أكثر مسألة الرشيد في عتبة فوعده بتزويجها وأنه يسألها في ذلك.. ثم دعا به وقال: ضمنت لك يا أبا العتاهية

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ٣٦ وأغاني ساسي ج ٣ ص ٧١ ـ ٧٢.
(٢) السابق نفسه ومروج الذهب ج ٣ ص ٢٤٠.
(٣) الشعر والشعراء ط. بريل ص ٤٩٨.

وفي غدٍ نقضي حاجتك إن شاء الله. وبعث إلى عتبة أن لي إليكِ حاجة، فاكبرت ذلك وأعظمته وسألته ما حاجته فأخفاها عنها أو تضمن له قضاءها، قالت له: أنا أمتك وأمرك نافذ فيّ ما خلا أمر أبي العتاهية لأنني حلفت لأبيك يميناً معظماً لا يمكنني الرجوع عنه؛ وبكت بين يديه فرق لها ورحمها وانصرف عنها. وغدا عليه أبو العتاهية فقال له الرشيد: والله ما قصرت في أمرك ومسرور وحسين ورشيد وغيرهم شهود لي بذلك وشرح له الخبر. قال أبو العتاهية فلمّا أخبرني بذلك مكثت مليّاً لا أدري أين أنا قائم أو قاعد؟ وقلت: الآن يئست منها إذ ردتك وعلمت أنها لا تجيب أحداً بعدك. فلبس أبو العتاهية الصوف ـ منذ ذلك الحين ـ وقال الأبيات التالية:

قطعت منك حبائل الآمال
وحططت عن ظهر المطي رحالي
ووجدت برد اليأس بين جوانحي
فغنيت عن حل وعن ترحال[1]

يبدو أن أبا العتاهية قد وصل إلى الشهرة والثروة عن طريق قصة هذا الغرام ولمّا أدرك ذلك أراد أن يظفر بصاحبة

---

(١) انظر القصة كلها في مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ والقصيدة كلها في الديوان ص ١٩٤.

القصة واستبدت به الرغبة في الظفر بها عندها رفضته رفضاً قاطعاً حتى بعد أن توسّل إليها بأقصى ما يمكنه من وسائل فكان لذلك بعض الأثر في دفعه إلى التزهد.

ج ـ ثقافته:

كانت الكوفة في أواخر القرن الأول الهجري وأوائل الثاني مركزاً لنشاط أدبي كبير اتصف بالتحرر والتطور كما اتصف بالابتكار والتجديد تبعاً لتطور البيئة الجديدة وللمؤثرات الكثيرة التي دخلتها من الحضارات الفارسية والهندية واليونانية وسواها. ولهذا مرت الحياة العقلية فيها بثلاثة أدوار هي: دور النشاط الفقهي والديني الذي بدأ مع إنشاء المدينة وجعلها من أقدم مراكز الحركة العلمية الإسلامية واشتهر من علمائها شريح والشعبي والنخعي وسعيد بن جبير وأبو حنيفة النعمان.

والدور الثاني هو دور النشاط الأدبي والشعري الذي بدأ مع منتصف القرن الأول. والدور الثالث هو دور النشاط اللغوي والنحوي الذي بدأ مع أوائل القرن الثاني واشتهر من علمائه أبو جعفر الرؤاسي وتليمذاه الكسائي (ت ١٨٩) والفراء (ت ٢٠٧)[1].

---

(١) طبقات الأدباء، ابن الأنباري ص ٦٥.

وقد اتسمت هذه الأدوار جميعاً بالتحـرر والتطور في بحوثها واتجاهاتها. وقد ألمَّ أبو العتاهية بها، وقد نمت وأينعت وأخذت تؤتي القطاف؛ فقد عاصر من أعلام الدور الأول أبا حنيفة النعمان صاحب مدرسة الرأي المعروفة وكان صاحب حلقة كبيرة في مسجد الكوفة ظل يعلم الناس فيها نحو ثلاثين سنة إلى أن توفي سنة ١٥٠هـ[1]. فيكون أبو العتاهية أدرك شاباً هذه الحلقة العلمية فترة لا بأس بها لا نشك في أنه أخذ عنها شيئاً. كما اشتهر من أعلام الحديث في الكوفة في أيامه زياد البكائي (ت ١٨٣) وابن عياش (ت ١٩٣). أمّا في الشعر والأدب فقد أدرك من أعلام الـرواة بالكـوفة حماداً الراويـة والمفضّل الضبي وكان ثقة يعتد برأيه وأبا عمرو الشيباني (ت ٢٠٦). وأمّا في النحو واللغة فقد أدرك نفراً من العلماء الثقات من أشهرهم المفضل وأبو عمرو المذكوران والكسائي والفراء وابن الإعرابي.

أمّا الشعراء الذين أدركهم وعاصرهم فلم يكن غريباً أن تجمع الكثرة منهم نزعة مستهترة أو قل ثـورة على التقاليـد الإجتماعية والإسلامية في الكوفة التي كانت مسرحاً لثـورات سياسية متعددة ومركـزاً لظهور المذاهب المتطرفة بما فيها من

(١) ضحى الإسلام ج ٢ ص ١٨٣.

مروق ديني وثورة على الأصول الإسلامية بسبب التيارات السياسية والإعتقادية العنيفة التي كانت تتقاذفها والتي أحدثت كثيراً من القلق في الدولة وعلى رأس القائمة مطيع بن أياس ويحيى بن زياد وحماد عجرد الذين ملأوا الكوفة مجوناً وتهتكاً في الجواري وعشق الغلمان ومروقاً في العقيدة. وكان معهم في الكوفة أيضاً أبو دلامة زند بن الجون وكان ماجناً خليعاً مثلهم وأمّا والبة بن الحباب استاذ أبي نواس فكان له في المجون والفتك شيء كثير.

كما لا ننسى أن نشير إلى أن أبا العتاهية عاصر في الكوفة نفراً من الأعلام النسابين والمؤرخين من أمثال محمد بن إسحاق صاحب السيرة (ت ١٥١) وهشام الكلبي (ت ٢٠٦) والهيثم بن عدي (ت ٢٠٧).

فهؤلاء الأعلام الذين عاشوا في الكوفة على أيام شاعرنا كانوا يمثلون ألواناً مختلفة من الحياة العلمية والأدبية كما كانوا يمثلون أنحاء متباينة من الحياة الإجتماعية والدينية: من جد وهزل وزهد وزندقة وخير وشر. ولا نشك في أن الشاعر لقي منهم نفراً فأخذ عن البعض وتأثر بالبعض الآخر.. وفي هذا دليل صريح على أنه حظي بنصيب وافر من الثقافة والمعارف

في الكوفة عاونه على تثقيف فنه وتهذيب شخصيته حتى استطاع أن يقف على أقدام ثابتة أمام الخلفاء ببغداد.

ولكن من المرجح أنه نال القسط الأوفر من معرفته في بغداد حيث هناك النشاط الأكبر الذي كانت تلتقي عنده روافد الثقافات والفنون. ووصوله إلى الخليفة المهدي وثباته عند الخلفاء الذي جاؤوا بعده، مثل الهادي والرشيد والمأمون، لم يكن يستطيعه لو لم يكن راغباً في الثقافة والتزود من مناهل المعرفة. ولكن مع كثرة الكتب التي أوردت جوانب من حياته لم يذكر أيّ كتاب منها أن أبا العتاهية تردد على حلقة درس أو دار علم أو تتلمذ لأحد من علماء عصره ولكننا نلاحظ بصورة قوية مظاهر كثيرة في سيرة حياته وأخباره وآثاره تدل على أنه يتمتع بقسط غير يسير من المعارف. فهذا جامع ديوانه ابن عبد البر النمري يعده من العلماء ويذكر الخصومة التي كانت بينه وبين منصور بن عمار في «باب قول العلماء بعضهم في بعض» من كتاب العلم[1]؛ كما يقول عنه أنه «داخل العلماء والصالحين... ونظم ما استفاده من أهل العلم من السنن وسير السلف الصالح[2]» ففي هذا دليل على أن أبا العتاهية

---

(١) مختصر جامع بيان العلم وفضله ص ٢٠٠.

(٢) مقدمة الديوان المخطوط بدار الكتب.

كان يميل إلى الثقافة ويطلب المزيد منها في عصر امتاز بنشاط ضخم في هذه الناحية. وأمّا الأدلة على ثقافة الشاعر فهي كثيرة واضحة فيما رواه المؤرخون والأدباء والعلماء من تاريخ حياته وأخباره وشعره تتبدى لنا فيما عرفناه من مذهبه عن الله والخلق وفيما اختاره لنفسه بعد معرفة ودراسة من مذاهب الجبرية والشيعة الزيدية البترية وغيرهما من المذاهب. وهذا يعني أنه كوّن لنفسه رأياً في الإمامة وفي الفعل الإنساني وفي الفعل الإلهي والصفات الإلهية إلى جانب رأيه في المعارف الإنسانية حيث يحترم العقل البشري ويجعل له أهميته فيما يقع لهم من معرفة عن طريق التأمل والفكر والبحث والاستدلال.

وعلى هذا النحو كان يخرج أبو العتاهية إلى الناس بأقوال وأشعار تكشف في وضوح عن ثقافته وعن مذهبه فهو قد كان متأثراً بعقيدة المانوية وكتبهم وما يطوى فيها من آثار من الزرادشتية والبوذية والنصرانية وكانت هذه العقيدة واضحة في الكوفة وما جاورها من القرى كالحيرة وعين التمر؛ وفي هذه البيئة نفسها حصل أبو العتاهية على حظ كبير من ثقافته الشعرية؛ فقد عرفنا كيف كانت الكوفة من أكثر المدن تبكيراً في ممارسة النشاط الأدبي بما كان يروى في مجالسها وأنديتها من أشعار قديمة وجديدة كما كانت تردد في جوانبها وفي

مجالسها أقوال العلماء والحكماء وخطب الوعاظ والفقهاء ومحاورات أصحاب الملل والنحل. وهو وإن كان استهل نبوغه ـ كما عرفنا ـ في الكوفة وتأثر بما شاع من قلق واضطراب ثم وفد إلى بغداد شاعراً ناضجاً إلّا أن هذا النضج وذاك النبوغ اتسعا في بغداد بعد أن احتكّ بالمجتمع احتكاكاً قوياً فتأثّر به وأثّر فيه في فترة مهمة من فترات تطوره السريع؛ فقد شهد بغداد في عصرها الذهبي كما يسمونه؛ فلقي فيها الخلفاء ونادمهم وجال في قصورهم وعشق بعض جواريهم وشارك في ترفهم وجدهم ولهوهم واتصل برجال دولتهم ووجوهها وسيداتها؛ كما لقي فيها أعلاماً في فروع المعرفة المختلفة وكان له أصدقاء ناصحون وأعداء متنكرون فيهم المتعصب له أو عليه وفيهم السلبي لا يبغي ضراً ولا نفعاً؛ وجَدَ أبو العتاهية ذلك كله كما وَجَدَ غيره من زهد ونسك وعبادة إلى جانب المجون والعبث والخلاعة؛ وجد السياسة في تقلّبها والفتن في حبكها والمؤامرات في تدبيرها والدسائس في تحضيرها والنكبات في وقوعها، وجَدَ أنامل تتدفق كرماً وسخاءً وأخرى تتقلّص شحاً وتقتيراً، ووجد ـ بعامة ـ خيراً كثيراً كما وجد شرّاً مستطيراً فتأثّر بكل ذلك ووقف منه موقفاً قلقاً حائراً مضطرباً لا يعرف ماذا يأخذ منها وماذا يدع حتى انتهت حياته على الصورة التي انتهت إليها من الشهرة وبعد الصيت.

د ـ زهده:

تكاد تجمع الروايات التي لدينا على أن أبا العتاهية بدأ يتزهّد ويلبس الصوف ويترك قول الشعر في الغزل منذ أن حلّ الرشيد بالرقة[1] واتخذها مقاماً له سنة ١٨٠ هـ [2]. وقد ظلّ يشبب بعتبة حوالي العشرين عاماً ولكنه فشل بعد عدة محاولات في الظفر بها فأظهر التزهّد وترك قول الشعر إلّا في الزهد[3].

ولأمر ما كانت في نفس أبي العتاهية جذور قديمة من التأثُّر بالزهد والميل إلى ذكر الموت على الرغم من نشأته الماجنة وحياته العابثة. فنحن لو نظرنا إلى أوليات شعره حينما كان يعبث مع الفتيان ويتخنّث مع المتخنّثين ويتعلّم كلامهم، نجد فيه ذكراً للموت والقبور وإشارة إلى الزهد في الحياة وإلى اضطرابها بين الربح والخسران فيقول:

ساكني الأجداث انتم
مثلنا بالأمس كنتم

(١) أنظر أغاني بيروت ج ٤ ص ٦٥ وزهر الآداب ج ٢ ص ٣٨.
(٢) الطبري ط بريل ج ٣ ص ٦٤٥ و٦٤٦ وابن الأثير ج ٦ ص ٦١.
(٣) أنظر مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

لـيت شـعـري مـا صنـعـتـم

أربـحـتـم أم خـسـرتـم[1]

ومهما يكن فقد كانت حينذاك حركة نشيطة تتجه إلى الزهد في الكوفة وكان فيها صنوف من التزيد الذي يدل على تأثّرها بعوامل غريبة عن الإسلام كما قدمنا. ولعل أبا العتاهية كان قد أصاب منها شيئاً أو أصابه شيء ظل كامناً في نفسه؛ أو ربما تسربت إلى نفسه هذه النزعة عن طريق رجلين من بني عنزة وكانا فقيهين من سادات أهل الكوفة. فلعل ولاءه لبني عنزة وتقرّبه من رجالها واحترامه لهذين الفقيهين قد أثّر عليه بشيء من فقههما فترسّبت في نفسه أصول لهذه النزعة التي أراد أن يصطنعها متأثراً بتلك الآثار غير الإسلامية التي صنعت الكثير من أفكاره وآرائه.

ومما يثبت تزهـده هو لبس الصوف وكان متأثّراً فيه دون شك بمنزع غير إسلامي ويؤكد ذلك ما جاء على لسان حفيده عبد القوي بن محمد بن أبي العتاهية الذي يقول: «لبس أبو العتاهية كساء صوف ودراعة صوف وآلى على نفسه ألّا يقول شعراً في الغزل وأمر الرشيد بحبسه والتضييق عليه فقال:

يـا ابن عم النبي سمعـاً وطـاعـة

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٤٩.

قـد خـلعنـا الـكسـاء والـدراعـة
ورجـعـنـا إلـى الـصـنـاعـة لـمـا
كـان سخط الإمام تـرك الصناعـة[1]

فهو يخلع أرديته الصوفية التي اتخذها وسيلة لإظهار زهده ليعود إلى صناعته وإلى قول الغزل الرقيق.

ولكن تؤكد لنا الوقائع التي يتوسلها لإظهار زهده بأنه لم يكن زهداً إسلامياً صحيحاً لأن الزهد الإسلامي الحقيقي الذي عرف به النبي ﷺ وصحابته وتابعوه والمجتهدون من بعده لا يمتُّ إلى ما ذكرناه من زهد أبي العتاهية بسبب؛ فالنبي ﷺ يقول: حين سُئِلَ ما الزهد في الدنيا؟: «أما إنه ما هو بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أغنى منك بما في يدك»[2]. ويقول عليه السلام في حديث آخر: «الزهد في الدنيا مفتاح الرغبة في الآخرة» كما سُئِلَ ﷺ: يا رسول من أزهد الناس في الدنيا؟ قال: «من لم ينسَ المقابر والبلى وآثر ما يبقى على ما يغنى، وعد نفسه من الموتى»[3]. ثم نجد من الأقوال الجيدة التي تعرف الزهد تعريفاً صحيحاً وتصوره تصويراً معقولاً ما يؤثر عن

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٧١.
(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٣٦٧.
(٣) السابق نفسه والصفحة نفسها.

بعض العلماء مثل قول الزهري: «إنه ليس تشعيث اللمة ولا قشف الهيئة ولكنه صرف النفس عن الشهوة»[1] وقول ذي النون: «الزهد والاستخفاف بثلاثة أشياء، بالنفس والشيء والخلق. فإذا استخفّ بالنفس عزَّ بها، وإذا استخف بالشيء ملكه، وإذا استخفّ بالخلق خدموه»[2].. وهذا ما يبين أن زهد أبي العتاهية من أسفل درجات الزهد وفي أدنى مراتبه.

كان أبو العتاهية برماً بالناس ساخطاً عليهم ثائراً ضدهم وتظهر ثورته في رميه كل الناس بالبخل والحرص ونراه مرة أخرى يرميهم بفساد الأخلاق، وثالثة بقلة جدواهم ونفعهم. وهكذا فقد روى ابنه« أن الرشيد لما أطلق أباه من الحبس لزم بيته وقطع الناس، فذكره الرشيد فعرف خبره فقال: قولوا له: صرت زير نساء وحلْس بيت، فكتب إليه:

برمت بالناس وأخلاقهم
فصرت أستأنس بالوحدة
ما أكثر الناس لعمري وما
أقلهم في منتهى العدة[3]

(٣) السابق.
(٤) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٣١٨.
(٥) أغاني بيروت ج ٤ ص ١٠٧.

وحدّث روح بن الفرح قال: شاور رجل أبا العتاهية فيما ينقشه على خاتم، فقال: «انقش عليه: لعنة الله على الناس» وأنشد البيتين السابقين[1] ولعل الذي دفعه إلى هذه النقمة على الناس هو شعوره بالضعة وإحساسه بالنقص الناجم عن وضعه الهين في المجتمع. وكل ذلك جعله نهباً لصراع نفسي مرير طوال حياته. فاستوت منه شخصية سوداوية المزاج متشائمة إلى أقصى غايات التشاؤم.. وإن هذا التشاؤم نفسه هو الذي لم يجعله يخاف الحياة ويسخط على الناس فحسب بل كان من الدوافع التي جعلته يخاف ما بعد الحياة أيضاً حيث نجده في شعره الزهدي يرهب الموت ويغرق في ذكره ويصوره في صور شتّى فيها كثير من البشاعة والإفزاع والتخويف؛ ويظل يعيد ويكرر هذه الصور في ديوانه بحيث تكاد تطغى على كل ما فيه من المعاني والصور الأخرى.

ويبدو أنه أراد بزهده: التوبة إلى الله مما حفلت به حياته من أخطاء مجونية ومروقات عبثية وعقيدية اعترف بها في مرضه الأخير. حدّث محمد بن أبي العتاهية قال: «آخر شعر قاله أبي في مرضه الذي مات فيه:

إلــهــي لا تــعــذبــنــي فــإنــي
مــقــرٌّ بــالــذي قــد كــان مــنــي

---

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٣٩.

فما لي حيلة إلا رجائي
بعفوك إن عفوت وحسن ظني
وكم من زلة لي في الخطايا
وأنت عليّ ذو فضل ومنّ
إذا فكرت في ندمي عليها
عضضت أناملي وقرعت سني
أجن بزهرة الدنيا جنوناً
وأقطع طول عمري بالتمنّي
ولو أني صدقت الزهد عنها
قلبت لأهلها ظهر المجن
يظن الناس بي خيراً وإني
لشر الناس إن لم يعفُ عنّي[1]

وهذا شعور بالندم على ما فرط في جانب الله بما اقترف من الخطايا ومروق في العقيدة ولكنه يأتي مع الإحساس بدنو أجله ولات حين ينفع الندم. وسواء كان زهده فيه شك أو هو حقيقي إلّا أنه يجيش بعاطفة قوية مفعمة بروح التوبة والندم العميق؛ وفيض عاطفته بهذا الروح هو الذي جعله يتوسّل إلى الله في دعاء ضارع ألّا يعذّبه. وشعوره بأن أوان التفكير قد فات

(١) السابق ج ٤ ص ١١١ - ١١٢.

هو الذي يدفعه إلى اليأس من أية حيلة؛ ولم يبق له إلاّ حسن الظن بالله تعالى وبعفوه.

والإحساس الحقيقي في الرجل أنه استطاع في أخريات حياته أن يحسّ بالندم ويفزع إلى الخلوص مما كان بنفسه وعقله من دخائل وأدران. ويبدو أنه وجد نفسه أخيراً وقد عركته الشيخوخة بعد أن قضى من العمر دهراً طويلاً لم يبلغ فيه من أمانيه كل ما كان يرجوه ووجد رجليه تسرع به الخطا نحو هاوية القبر فكف عن صبواته ونبذ شهواته وعكف جاهداً على أن يتوب إلى ربه. ويغلب أنه صنع ذلك بعد سنة مائتين هجرية وهذا يعني أنه كان قد تجاوز من السن سبعين عاماً. والذي يثبت لنا توبته وندمه وطلبه الغفران هو أنه جعل يحجّ في كل سنة[١] على نحو ما صنع صديقه سعيد بن وهب لعلّه يكفر عن حياته التي أمضى القسم الأكبر منها في الإثم والمجون.

والذي يجب أن نتنبّه إليه في زهده هو التفريق بين نوعين منه: زهد لا يتفق مع الروح الإسلامي قاله في أيام العبث والمجون، وزهد؛ فيه توبة واستغفار قاله بعد السبعين أو نحو ذلك من عمره حتى مات ولكنّ النوعين جميعاً تسودهما نزعته

(١) أغاني بيروت ج٤ ص ٥٦.

المتشائمة التي تزعم أن الدنيا شر وأن الناس لا خير فيهم وأن الحياة عبث وسراب خادع .

هـ ـ وفاته :

أما سنة وفاته فقال فيها المسعودي : «وفي هذه السنة ـ وهي سنة إحدى عشرة ومائتين ـ مات أبو العتاهية ؛ إسماعيل بن القاسم متنسِّكاً لابساً الصوف»[١] .

وعلى حين لم يحدث خلاف بين المؤرخين على سنة ولادته وهي سنة ١٣٠ هجرية ، حيث أن الاعتماد فيها على رواية ابنه محمد التي أثبتها الخطيب البغدادي[٢] ، ولأنها رواية فريدة فأنهم اختلفوا في تاريخ وفاته في اليوم والشهر والسنة . فابن قتيبة يروي أنه مات سنة ٢٠٥ هـ[٣] . وأبو الفرج يذكر في رواية أنه مات سنة ٢٠٩ هـ[٤] .

ويذكر في أخرى عن ابنه محمد أنه مات في سنة ٢١٠ هـ[٥] .

أما رواية المسعودي السابقة التي تذكر أنه مات سنة

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥٨ .
(٢) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٦٠ .
(٣) الشعر والشعراء ص ٥٠٠ .
(٤) أغاني بيروت ج ٤ ص ١١٣ .
(٥) السابق نفسه .

٢١١ هـ فيوافقه فيها أبو الفرج في رواية يقول فيها: «وذكر الحارث بن أبي أسامة عن محمد بن سعد كاتب الواقدي أن أبا العتاهية مات في يوم الإثنين لثمان خلون من جمادى الأولى سنة ٢١١ هـ، ودفن حيال قنطرة الزياتين في الجانب الغربي ببغداد»[١]. وهذه الرواية هي التي نقلها الخطيب، مع اختلاف في الشهر لاختلاف رجال السند فقال: «أخبرنا إبراهيم بن مخلد أجازة، أخبرنا عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم البغوي أخبرنا الحارث بن محمد، حدثنا محمد بن سعد قال: سنة ٢١١ فيها مات أبو العتاهية الشاعر يوم الإثنين لثمان ليال خلون من جمادى الآخرة[٢]».

ولكنه أي الخطيب يعود فيقول: «قرأت على الحسن بن أبي بكر عن أحمد بن كامل القاضي قال: مات أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان الجرار مولى عنزة فيما ذكر سنة ٢١٣، ثلاث عشرة ومائتين ببغداد[٣]».

وهذه الرواية وهي التي نميل إلى تصديقها تتفق مع رواية لأبي الفرج عن مخارق المغنّي قال: «توفي أبو العتاهية،

---

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ١١٣.
(٢) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٦٠.
(٣) السابق.

وإبراهيم الموصلي، وأبو عمرو الشيباني بمدينة السلام في يوم واحد في خلافة المأمون وذلك في سنة ٢١٣، ثلاث عشرة ومائتين[1]».

وكان هذا الاختلاف هو الذي جعل ابن خلكان يترجّح بين سنتي ٢١١ و٢١٣ حين يقول: «وكانت ولادته في سنة ١٣٠ هـ ثلاثين ومائة وتوفي يوم الإثنين لثمان أو ثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ٢١١، وقيل سنة ٢١٣ ببغداد، وقبره على نهر عيسى قبالة قنطرة الزياتين رحمه الله تعالى[2]».

مات إذن أبو العتاهية سنة ٢١٣ هـ وقد عمّر ثلاثاً وثمانين سنة لأنه كان ثالث ثلاثة من الأعلام ماتوا في يوم واحد: علم في الشعر هو أبو العتاهية وعلم في الموسيقى والغناء صديق له هو إبراهيم الموصلي وعلم في اللغة هو أبو عمرو الشيباني[3]؛ وليس من شك في أن مثل هذا اليوم في التاريخ لا يضيع من ذاكرة المعاصرين.

---

(٤) أغاني بيروت ج ٤ ص ١١٢.

(٥) وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٢.

(١) أنظر وفاتهم في ابن خلكان ص ١/٧٢ والفهرست ص ١٠٨ والأغاني ج ٤ ص ١١٢.

الفصل الخامس: أغراضه الشعرية

قال أبو العتاهية الشعر في الأغراض الكبيرة المعروفة مثل المدح والهجاء والعتاب والوصف والرثاء والموعظة والحكمة ولكنه اشتهر بفنين اثنين هما الغزل والزهد.

والحقيقة التي ينبغي أن ندلّ عليها منذ الآن هي: أن شعر أبي العتاهية يعتبر صورة صادقة لتطور مراحل حياته الوجدانية والعقلية والنفسية وما يتبع ذلك من نمو عاطفة وكسب تجربة ومعرفة وتعقد رغبات وتشابك علاقات كما أن هذا الشعر في الوقت نفسه يصور كثيراً من جوانب البيئة والعصر.

١ ـ شعر الغزل:

فقد استهل أبو العتاهية حياته العاطفية بان عشق جارية ذات حسن وجمال[1]، هي سعدى، وكانت نائحة في الحيرة. ويبدو أن بداية العلاقة بينهما كانت قائمة على المنفعة بحيث كان أبو العتاهية يقول لها الشعر ويذكر فيه الموت والتزهد في

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٢٦ وساسي ج ١٤ ص ٥٤.

الدنيا لتنوح به. ولعل هذا كان من الأسباب القوية التي جعلته يقول الشعر في الزهد في بواكير حياته الفنية ويهتم بذكر الموت خاصة. ومهما يكن فقد ظل أبو العتاهية يشبب بسعدى برغم أن مولاها أبا الفضل عبد الله بن معن بن زائدة كان يهواها «فتهدد أبا العتاهية وخوّفه ونهاه أن يعرض لمولاته[1]»، فقال أبو العتاهية:

ألا قـل لابـن مَـعْـنٍ ذا
الـذي فـي الـود قـد حـالا
لـقـد بـلـغـت مـا قـال
فـمـا بـالـيـت مـا قـالا[2]

ثم كان ما لقيه من عنت مولاها الذي أنزل به الأذى، فيما بعد، سبباً لأن يعدل عن هذا الهوى، وأن يتصالح معه.

وشعره في التشبيب بسعدى ليس منه بين أيدينا شيء؛ فلعل ابن معن كان له أثر في إخفاء هذا الشعر ولعل أبا العتاهية نفسه هو الذي أخفاه بعد أن طلب الزهد ورغب في القضاء على هذا التشبيب الذي قاله في صباه وعلى غيره من أشعار المجون.

---

(١) المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها.
(٢) السابق نفسه.

بيد أن هذا الهوى ظل كامناً في قلبه، حتى بعد أن نزل غداد، إلى أن أيقظه أمر طارق جديد «.. فحينما يرى عتبة ماضية إلى السوق ـ أول عهده ببغداد ـ تثور بنفسه أحاسيس الهوى فتوقظ فيها ذلك العشق القديم فيكون أول شعر يقوله حينذاك:

راعني يا زيد صوت الغراب
بحذاري للبين من أحبابي
يا بلائي ويا تقلقل أحشا
ئي وتعسي لطائر نعاب
أفصح البين بالنعيب وما
أفصح لي في نعيبه بالإياب
فاستهلت مدامعي جزعاً منـ
ـه بدمع ينهل بالتسكاب
ومنعت الرقاد حتى كأني
أرمد العين أو كحلت بصاب
قلت للهوى إذ طوى وصل
سعدى لهواه البعيد بالأنساب
أنت مثل الذي يفر من القـ
ـطر حذار الندى إلى الميزاب[1]

(١) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٥٦.

وهذه النغمة الحزينة تصور شعوره الحائر الخائف الذي يلح على نفسه في صورة متشائمة يرهق ذهنه وسمعه بها صوت الغراب النعاب الذي أفصح عن ذلك البين الذي انتهى عنده هواه لسعدى ولم يفصح عن أمل في العودة إليها لأنه تعلق بغيرها، ويخشى أن يكون حظه من التعاسة والبلاء في هذا الحب الجديد كذلك الذي طواه الفراق. . وإن مثله بين الحبين، القديم والجديد، كمثل الذي يهرب من قطرات الندى ليجد نفسه وقد أغرقه الماء.

إنه في هذه الأبيات يودع حباً أُوذي فيه فبان عنه ويستقبل آخر لا يعرف ماذا وراءه من أذى أو رضا ومن وصل أو قطيعة؛ بل إن حِسّه المرهف ليدلّه على المجهول فيستشف من وراء حجبه نصيبه من هذا الهوى حينما يقرع أذنيه نعيب الغراب الذي يتطير به ويربط تطيره هذا بنصيبه من الإخفاق في حبه المودع. ولا تفوته حين يذكر سعدى وهواها صورة أخيه زيد الذي يناديه وكأنه يستصرخ عونه لينقذه من صورة الغراب. وهل له أقرب رحماً وأشد عوناً بين الناس جميعاً من أخيه؟.

ولكنه على الرغم مما يتوقعه في سبيل هواه من أهوال لا يتقاعس عن تلبية رغبات نفسه، ويستمر يشبّب بجارية الخليفة حتى يجتمع له قدر من الشعر يقدّمه إليها هدية عاطفته غير

عابيء بقسوة هواجسه وظنونه لأن حبه كان أقوى من تلك الهواجس والظنون وقسوتها، حتى أنه أصبح لا همّ له إلاّ هذا الحب الجديد الذي يشجيه ويذيب جسمه ولكنه يستعذب هذا كله من أجل هواه، فيقول:

أخلاي بي شجو وليس بكم شجو
وكل امرىء من شجو صاحبه خلو

رأيت الهوى جمر الغضى غير أنه
على جمره في صدر صاحبه حلو

أذاب الهوى جسمي وعظمي وقوتي
فلم يبق إلاّ الروح والبدن النضو

وما من حبيب نال ممن يحبه
هوى صادقاً إلاّ يداخله زهو

وإني لنائي الطرف من غير خلتي
ومالي سواها من حديث ولا لهو

لها دون إخواني وأهل مودتي
من الود مني فضله ولها العفو

بليت وكان المزح بدء بليتي
فأحببت حقاً والبلاء له بدو

وعلقت من يزهو علي تجبراً

وإني في كل الخصال له كفو[1]

وهكذا يتطور ذلك الهوى الذي كان قائماً على المنفعة إلى حب رقيق مهذّب تنطق به هذه الأبيات بما فيها من شريف المعاني وعفيف اللفظ، فمحبوبته الجديدة لا تثير منه شهوة، وإنما تثير فيه عاطفة نبيلة بما تبديه من زهو بجمالها ودل بحسنها فيرضيه هذا الدل وذاك الزهو فيهاوكل ما عدا ذلك فيها من خصال يرضيه أيضاً لأنهما متفقان في الخلال متجاوبان في الصفات. فهو من أجل ذلك معذور حينما يسبيه حسنها وجمالها ويذله دلالها. فيقول:

حسناً لا تبتغي طلباً إذا برزت

لأن خالقها بالحسن حلّاها

قامت تمشي فليت الله صيرني

ذاك التراب الذي مسّته رجلاها[2]

ويقول:

ظبي عليه من الملاحة حُلّة

ماء الشباب يجول في وجناته[3]

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٣٥٩.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي في ترجمته لأبي العتاهية.

(٣) أخبار أبي تمام للصولي ص ٣٥.

فعذره إذن ينبثق من جمالها؛ جمال صورتها وجمال مشيتها، فهي تحكي الظبي في رقته وملاحته وفيض وجنتيها بماء الشباب الذي يجول فيهما.

ألا إن ظبياً للخليفة صادني
ومالي عن ظبي الخليفة من عذر[1]

والظبي يصاد، والجميل هنا أنه هو الصائد، وأجمل من ذلك ماء الشباب الذي يجول في وجناته ولعل هذا الماء هو الوسيلة للاصطياد.

ومثل هذا القلب الجميل للمعنى يطالعنا مراراً في غزل أبي العتاهية فيقول: مرة

يا من رأى قبلي قتيلاً بكى
من شدة الوجد على القاتل[2]

أو يقول:

يصاب فؤادي حين أرمي ورميتي
تعود إلى نحري ويسلم من أرمي[3]

فالقتيل يموت، ولكننا نراه هنا يبكي، ويبكي على

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧٥.
(٢) أغاني بيروت ج ٤ ص ٤٧.
(٣) السابق ٤/٤٤.

قاتله. والسهم كذلك هنا لا ينطلق إلى أمام وإنما يرتد إلى راميه فيصيبه لأن في محبوبته سحراً يقلب الأوضاع. ويصف أبو العتاهية هذا السحر فيقول:

وإني لمعذور على فرط حبها
لأن لها وجهاً يدل على عذري
إذا ما بدت والبدر ليلة تمه
رأيت لها فضلاً مبيناً على البدر
وتهتزُّ من تحت الثياب كأنها
قضيب من الريحان في ورق خضر
وتبسم عن ثغر نقي كأنه
من اللؤلؤ المكنون في صدف البحر
يخبرني عنه السواك بطيبه
ولست به، لولا السواك بذي خبر
أبى الله إلّا أن أموت صبابة
بساحرة العينين طيبة النشر[1]

ويتم هذه الصورة التي رسمها لجمال وجهها وقدها وثغرها وعينيها وطيبها حينما يقول:

أمسى فؤادي عند خمصانة
ذات وشاح قلق جائل

(١) تاريخ الإسلام للذهبي في ترجمة الشاعر وتاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٥٧.

كـأنـهـا مـن حـسـنـهـا درة
أخـرجـهـا اليـمُّ إلـى الـسـاحـل
أخـال فـي فيـهـا وفـي طـرفـهـا
سـواحـراً أقـبـلن مـن بـابـل[1]

ذلك إذن سر السحر فيها ذلك السحر الذي دفع به إلى أن يقدّس هذا الجمال تقديساً. وفي الحق أن هذه الصورة التي رسمها لنا أبو العتاهية تدل دلالة قوية على أن الشاعر انقلب من عابث مازح إلى محب عاشق بعد أن قضى وطره من العبث والمزاح وقضى على شعره العابث، وتطالعنا هذه الدلالة في كل بيت من أبياته وفي كل خط وظل من خطوط الصورة وظلالها. وإن ما يدلنا على صدق عاطفة الشاعر وجمال ذوقه وتمكنه من أدوات فنه هو الكلمة: فهي في هذه الأبيات برغم بساطتها وسهولتها تشرق على المعنى فتضفي على الصورة إيحاءات دالة وظلالاً وألواناً وحركة. كل ذلك نستطيع أن نتأمله في: ذلك الإشراق الذي يفضل به وجهها على بدر التمام واهتزازها من تحت الثياب الذي يحكي قضيب الريحان الأخضر بضاضة وطيباً وتثنّياً ولله نقاء الثغر الباسم الذي يحكي اللؤلؤ الذي لم يمس وفي حديث السواك إليه بعرفها. ثم لنتأمل

(١) مقدمة ابن عبد البر على الديوان المخطوط.

هذه الغادة الخمصانة ذات الوشاح القلق. . ونتساءل عن سبب قلقه لعله خجله من فرط جمالها ولعلها الانسام تداعبه أو لعله تثنّيها الذي يميل الوشاح هنا وهناك ولعل ذلك جميعاً سبب قلقه. أما حسنها الذي يحكي الدرة النقية الخالصة الجديدة، فليس أبدع منه إلّا هؤلاء السواحر البابليات اللائي يحركن طرفها وثغرها. كل تلك الصورة ووسائلها تحركها نفسية الشاعر وعاطفته. ثم هو يبدأ الأبيات بأن يعذر نفسه ويسوق مبررات هذا العذر ناسياً نفسه حتى يفيق على حديث السواك إليه بطيبها ثم تهزه الصبابة التي تؤذن نفسه بالتلف والهلاك.

ليس غريباً إذن أن من تشب في نفسه هذه الإنفعالات والعواطف بسبب محبوبة يعظم جمالها ويجله إلى حد التقديس، أن يقول:

كأن عتابة من حسنها
دمية قس فتنت قسها
يا رب لو أنسيتنيها بما
في جنة الفردوس لم أنسها
إني إذن مثل التي لم تزل
دائبة في طحنها كدسها

حتى إذا لم يبق منه سوى
حفنة بر خفقت نفسها[1]

فهي منه بمنزلة دمية القس يقدس حبها فيفنيه جمالها وصورة التقديس مستمرة في ضراعته إلى الله ألّا ينسيه إياها بحور الجنان وإلا ذهب كل ما قاساه وعاناه من أجلها هباء أو يقول:

إن المليك رآك أحـ
ـسن خلقه ورأى جمالك
فحذا بقدرة نفسه
حور الجنان على مثالك[2]

فهي في نظره أبدع خلقاً من حور الجنان وإلّا لما رغب في أن يظل يذكرها في الفردوس برغم ما فيها من جمال بارع ينسى كل شيء. ومجمل القول أن محبوبته أجمل ما خلق الله على الإطلاق في الدنيا والآخرة. فإن حبه الشديد لعتبة زيّن له صورتها فانطبقت في نفسه على هذا النحو فإذا بدت للناس مبالغاً فيها فهذا إحساسهم وذاك إحساسه هو ولا ضابط للقلب فيما يسرف فيه أو يعتدل من تصور أو إحساس. ففتاة أبي

---

(١) الموشح ص ٢٦٣.
(٢) الشعر والشعراء ص ٥٠١ وأغاني بيروت ج ٤ ص ٥٤.

العتاهية عنده أبدع شيء يمكن أن يتصوره في هذا الوجود وفيما بعد الوجود وإذا كان أسرف في تصويرها بأنها أجمل من صور الجنان فإن ذلك لم يكف قلبه الذي يصرّ على تجريدها عن المقارنة إذ يقول:

يا عتب ما أنت إلا بدعة خلقت
من غير طين وخلق الناس من طين[1]

ففي قوله: بدعة إبهام يدل على تجريدها فوق مستوى التصور الحسي ولكن هذا التجريد لم ينسه أنها مخلوقة.

كانت عتبة في تصوره بارعة حسناً وجمالاً، كما كانت بارعة في أساليب الهوى والإثارة عن طريق الصدّ والدلال والهجر والعتاب فيقول في ذلك:

يا لهف نفسي على التي اجتنبت
بأي جرم ترونها عتبت
تبارك الله بئس ما جنت
بي في هواها وبئس ما ارتكبت
أتيتها زائراً فما انحرفت
عليّ إذ جئتها وما احتسبت

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٤٠.

كم من ديون والله يعلمها
لنا عليها ولم تقض إذ وجبت
ما وهبت لي من فضلها عدة
إلّا استردت جميع ما وهبت
فأيّ خير وأيّ منفعة
لذات دل تريق ما حلبت
الله بيني وبين ظالمتي
طلبت منها وصالها فأبت
ماذا عليها لو أنها بعثت
منها رسولاً إليّ أو كتبت
رغبت في وصلها وقد زهدت
عتبة في وصلنا وما رغبت[1]

كما يعاتبها على ما تبديه نحوه من هجر ويصوّر لها حال نفسه فيقول:

يا عتب هجرك مورث الأدواء
والهجر ليس لودنا بجزاء
يا صاحبي لقد لقيت من الهوى
جهداً وكل مذلة وعناء

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

علق الفؤاد بحبها من شقوتي
والحب داعية لكل بلاء
بخلت عليّ بودها وصفائها
ومنحتها ودي ومحض صفائي
فتخالف الأهواء فيما بيننا
والموت عند تخالف الأهواء[1]

وهو يعلم أن هجرها إياه لا اختيار لها فيه، وإنما هي مضطرة إلى ذلك اضطراراً لذلك يتمنّى لو خلص من شباك هذا الحب الذي لا يملك فيه سوى تذراف الدموع التي أضرت بعينيه حتى أصبح يلزم طبيباً ليداويهما ولكنهما لا تتداويان:

أيا ويح نفسي ويحها ثم ويحها
أما من خلاص من شباك الحبائل
أيا ويح عيني قد أضرهما البكا
فلم يغن عنها طب ما في المكاحل[2]

كما يقول:

عاد لي من ذكرها نصب
فدموع العين تنسكب

(١) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٥٩.
(٢) أغاني بيروت ج ٤ ص ٦١ ـ ٦٢.

وكــذاك الــحــب صــاحــبــه
يــعــتــريــه الــهــم والــوصــب[1]

وكما تطالعنا ظاهرة البكاء كثيراً في غزله، نراه أيضاً يشكو الهم والأرق والسهاد وله في هذه الشكوى وفي تصوير الأرق وعلته معان طريفة تدل على معاناة حقيقية كالذي نجده في قوله:

يــا عــتــب مــالــي ولــك
يــا لــيــتــنــي لــم أرك
مــلــكــتــنــي فــانــتــهــكــي
مــا شئــت أن تــنــتــهــكــي
أَبِــيــتُ لــيــلــي ســاهــراً
أرعــى نــجــوم الــفــلــك
مــفــتــرشــاً جــمــر الــغــضــى
مــلــتــحــفــاً بــالــحــسك[2]

وفي هذا التمني الذي يندم فيه على رؤيتها دليل على أنه يقاسي بسببها في حياته عذاباً قاسياً، ولكنه يعود فيطلب إليها أن تنتهك منه هذه الحياة، فليس يهم أن يبيت راعياً للنجوم،

---

(١) السابق ج ٤ ص ١٠٨.
(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥٩.

فرشه من لهيب وغطاؤه من شوك الحسك. ومثل هذا الأرق يستبدّ به في الكوفة بعد أن نفاه إليها المهدي من أجل هذا الحب وفيه معانٍ جميلة أيضاً إذ يقول:

أمسى ببغداد ظبي لست أذكره
إلا بكيت إذا ما ذكره خطرا

إن المحب إذا شطت منازله
عن الحبيب بكى أو حن أو ذكرا

يا رب ليل طويل بت أرقبه
حتى أضاء عمود الصبح فانفجرا

ما كنت أحسب إلا مذ عرفتكم
أن المضاجع مما ينبت الإبرا

والليل أطول من يوم الحساب على
عين الشجي إذا ما نومه نفرا[1]

ولا شك أن البكاء والسهر والهم، كل ذلك أضناه حتى أشرف على الهلاك، فهو لذلك مريض قد أنزل به المرض الهزال والنحافة والضعف، حتى ليقول وهو في تلك الحال من النفي بالكوفة.

قل لمن لستُ أسمي
بأبي أنت وأمي

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ٣٧.

بـأبـي أنـت لـقـد أصـ
ـبـحـت مـن أكـبـر هـمـي
ولـقـد قـلت لأهـلي
إذ أذاب الـحـب لـحـمـي
وأرادوا لـي طـبـيـبـاً
فـاكـتـفـوا مـنـي بـعـلمـي
مـن يـكـن يـجـهـل مـا ألـ
ـقـى فـإن الـحـب سـقـمـي
إن روحـي لـبـغـدا
د وفـي الـكـوفـة جـسـمـي[1]

وكان أبو العتاهية بالفعل نحيفاً، ضعيفاً ولعله كان يريد أن يؤكد أن ما به من نحافة ومن ضعف إنما بسبب حبه، فنراه يؤكد هذا المعنى في شعره، في ضراعة المستجير بما في القلوب من رحمة وما في النفوس من إشفاق، يقول:

خليلي مـا لـي لا تـزال مضـرتـي
تكـون على الأقدار حتمـاً من الحتم
يـصـاب فؤادي حـين أرمـي رميـتي
تعـود إلى نحـري ويسلم من أرمي

(١) السابق نفسه والصفحة نفسها.

صبرت ولا والله ما بي جلادة
على الصبر لكن صبرت على رغمي
ألا في سبيل الله جسمي وقوتي
ألا مسعد حتى أنوح على جسمي
تعد عظامي واحداً بعد واحد
بمنحى من العذال عظماً على عظم
كفاك بحق الله ما قد ظلمتني
فهذا مقام المستجير من الظلم[1]

وهو لا يكتفي بأن يدل على ضعفه وهزاله بعظامه البارزة الواضحة التي تعد في سهولة وإنما يدخل نفسه في عداد المقتولين الهالكين الذين لا ترجى نجاتهم إلاّ بوصل من الحبيب، يقول:

يا إخوتي إن الهوى قاتلي
فيسروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا في اتباع الهوى
فإنني في شغل شاغل
عيني على عتبة منهلة
بدمعها المنسكب السائل

---

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٤٤.

يـا مـن رأى قـبـلي قـتـيـلاً بـكـى
من شـدة الـوجـد على القـاتـل
بـسـطت كفـي نحـوكـم سـائـلاً
مـاذا تـردون عـلى الـسـائـل
إن لـم تـنـيـلوه فـقـولـوا لـه
قـولاً جـمـيـلاً بـدل الـنـائـل
أو كـنـتـم الـعـام عـلى عـسـرة
ويـلي فـمـنـوه إلـى قـابـل[1]

فهو لا يرجو من الوصل شيئاً كثيراً أو عاجلاً وإنما هو يبتغي ما يحول بينه وبين الهلاك الذي ينتظره، ولعل وعداً بهذا الوصل يكفيه ويشفي علته ورغبته، أو زيارة قصيرة تباعد بينه وبين الموت، فتبقى له حياته التي يملكها.

وتتضح ذلته حقيقة في أنه دائماً يصفها بأنها مالكته وهو مملوك لها وبأنها تارة مليكته وأخرى أميرته وثالثه سيدته، وفي أنه كثيراً ما يخاطبها بضمير المخاطبين الذكـور، أو بضمير الغائب، وبذلك يضفي على نفسه الذل والرق لها وفي الوقت نفسه يخلع عليها الإجلال والتعظيم، فهـو المحب العاشق

(١) العمدة ج ١ ص ١٠٥ طبقات ابن المعتز ص ٢٣٠ وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٣.

المدله الذي يجد من معشوقته كل أصناف البلاء وكل أسباب الذل، وعلى الرغم من هذا كله يظل عاشقاً مستعذباً العذاب في سبيل أمله الوحيد في لقاء محبوبته بل كلما اشتد عليه العذاب ازداد شوقاً إلى ذلك الأمل.

ولـي فؤاد إذا طـال العـذاب بـه
هـام اشتيـاقـاً إلى لقيـا معـذبـه
يفـديك بـالنفس صب لو يكـون لـه
أعـز من نفسـه شيء فـداك بـه[1]

والحقيقة أن كل ما يطالعنا في هذا الغزل من أسباب العفة دليل قوي على محض إخلاص الشاعر نحو هذا العاطفة المشبوبة في وجدانه ونفسه بعد أن انتهى عنه عهد العبث وزال القصد من المزاح وأدرك ما كان يصبو إليه من الوصول إلى الخليفة ونال من الثراء العريض ما أراده وما طمع فيه؛ ولعل صدودها كان من أكبر الدوافع إلى استمرار تشبيبه ثم تعلقه بها تعلقاً شديداً.

فصدق المعاناة هو أول ما يبدو من خصائص شعر أبي العتاهية في الغزل وصفاته العامة أما الخصيصة الثانية التي تبد سريعاً في هذا الشعر أيضاً فهي ليونته التي تكشف عن ليونة

(١) محاضرات الراغب ج ٢ ص ٣٠.

الشاعر وضعفه وتخنّثه وإذا كنا قد وقفنا من قبل على أسباب هذه القضية في نفسه فإننا نقف عليها هنا في فنه ولنتأمل مثلاً هذه الأبيات:

أحمد قال لي ولم يدر ما بي
أتحب الغداة عتبة حقاً

فتنفست ثم قلت: نعم حبـ
ـاً جرى في العروق عرقاً مفرقاً

ما لدمعي عدمته ليس يرقى
إنما يستهل غسقاً فغسقاً

طرباً نحو ظبية تركت قَلْـ
ـبي من الوجد قرحة ما تفقا

قد لعمري مل الطبيب ومل
الأهل مني مما أقاسي وألقى

ومن الحين والشقاء تعلقـ
ـت مليكاً مستكبراً حين يلقى

إن شكوت الذي لقيت إليه
صدعني وقال بُعداً وسحقا

أنا عبد لها مقروماً يمـ
ـلك غيرها من الناس رقا

ناصح مشفق وإن كنت ما أر
زق منها والحمد لله عتقا
ليتني مت فاسترحت فإني
أبداً ما حييت منها ملقى
لا أراني أبقى ومن يلق ما لا
قيت من لوعة الجوى ليس يبقى
فاحتسب صحبتي وقل: رحمة اللّـ
ـه على صاحب لنا مات عشقا[1]

فكل صورة يرسمها الشاعر لنفسه في هذه الأبيات تدلنا على ما فيه من ليونة وضعف يبدآن فيها بقمة وينتهيان بمثل هذه القمة أيضاً، وفيما بين القمتين صور تتفاوت صعوداً وهبوطاً في الضعف واللين. ولا تقف فقط هذه الصور المتلاحقة في الأبيات لذله وخضوعه دليلاً على ما نحن بصدده من ضعف ولين، وإنما تدعمها الألفاظ الموحية لهذا المعنى بما فيها من رقة؛ والعبارات بما فيها من طريقة خاصة في الصياغة والتركيب. ولنتأمل مثلاً قوله:

فتنفست ثم قلت ـ ما لدمعي عدمته ـ ليتني مت ـ فاحتسب صحبتي وقل رحمة الله.

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥٨ وأغاني بيروت ج ٤ ص ١٠٤.

ولنتأمل مرة أخرى هذه الأبيات:

آه من غمي وكربي
آه من شدة حبي
ما أشد الحب يا سب
حانك اللّهم ربي
لم أنل منه نوالا
غير أن كدر شربي
أنت ممن خلق الرح
عن من ذي الخلق حسبي
ولقد قلت وجمر الـ
حب قد أقرح قلبي ولبي(١)

فطريقته في التوجع وفي التعجب وفي النداء والدعاء وفي استخدام التفصيل طريقة مخنّثة أشبه بطرق النساء في الحديث والتعبير وما يلازمها من أصوات وإيماءات خاصة يستطيع الإنسان أن يتصورها عند قراءة مثل تلك الأبيات.

فإن هذه الليونة في شعره كانت مصدراً لسمة الرقة فيه وهي السمة التي أكسبت غزله شهرة وإقبالاً عليه. يقول ابن

---

(١) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٥٢.

قتيبة: «وغزله ضعيف، مشاكل لطبائع النساء وما يستخففن من الشعر، وكذلك كان عمر بن أبي ربيعة في الغزل»[1].

ويقول ابن المعتز: «وغزله لين جداً مشاكل لكلام النساء موافق لطباعهن وكذلك كان عمر بن أبي ربيعة المخزومي والعباس بن الأحنف»[2]. وكان يقول: إن لشعره في الغزل من قلوب النساء موقع الزلال البارد من الظمآن لرقته[3]. كما يروي أبو الفرج عن أبي ذؤيب أن جواري المهدي كن يشتهين أن يسمعن شعر ربيعة الرقي قال: «وكان فيه لين وكذلك كان أبو العتاهية»[4] فسمة الليونة في شعره اكسبته خفة محبوبة لدى النساء كما أضفت عليه العفة خفة محبوبة لدى الرجال بحيث نجد الخلفاء يقبلون عليه. وقد وجدنا الرشيد في أكثر من مناسبة يستدعيه لينشده أبياتاً في الغزل لمجرد الاستمتاع بهذا الغزل الضعيف ينشده صاحبه أو يغنّي به ملحناً. وقد بلغ من إقبال الرشيد عليه أنه كان يأمر معلم ولده أن يرويهم شيئاً منه.

لذلك لا نعجب إذا كنا نرى الرشيد يثور ويغضب ويأمر بسجن أبي العتاهية إذ يعمد هذا إلى الامتناع عن قول الغزل.

---

(١) الشعر والشعراء ص ٤٩٧.

(٢) طبقات الشعراء ص ٢٢٨.

(٣) السابق نفسه ص ٢٣٠.

(٤) الأغاني طبعة ساسي ج ١٥ ص ٣٧.

فلمّا أصرّ أبو العتاهية على الامتناع، وأبلغ مخارق المغني الخليفة عزم الشاعر على الزهد، كان جواب الرشيد: «فجعتنا والله بأبي العتاهية، وإني لأخاله خاتمة لهونا. ثم قال: غنني أصواته: فكررتها عليه صوتاً صوتاً»[1]. ولا شك أن صدق المعاناة في العمل الفني تكفل له في نفس المتلقي عمق الأثر وقوة الوقع وشدة الاستجابة والتأثر، فإذا كان الموضع عاطفياً فيه شرف وعفة، وفيه سهولة وخفة كان ذلك أدعى إلى حسن تقبله والاستمتاع به والشوق إلى معاودته. ومن الواضح أن أبا العتاهية أختار هذا النمط من الغزل العفيف الخفيف ليضمن منزلته عند الخلفاء بعد أن رأى تشجيعهم عليه واستنكارهم لما يقوله شعراء المجون من أمثال بشار ومطيع وأبي نواس والحسين بن الضحاك وأضرابهم ممن أشاعوا الغزل الحسي والغزل الفاحش في الغلمان.

وفي ذلك دليل صريح على قوة الترابط بين نزعة أبي العتاهية الزهدية وبين عاطفته الوجدانية بحيث ينسكب هذا الترابط في سهولة على صفحات إنتاجه الفنّي. وليس من شك في أن ظهور هذا الترابط في شعره في الغزل دليل على قوته من ناحية ومن أخرى على أن هذا العنصر في حياته النفسية

---

(١) أنظر القصة في عيون التواريخ ج ٧ ص ١٣٨.

والوجدانية كان مبكراً في فاعليته وتأثيره، بحيث نجده في هذا الطور المبكر من حياة الشاعر العاطفية والفنية.

٢ ـ شعر الهجاء:

إن الشعور الذي دفعه إلى الهجاء في هذه المرحلة هو شعور بسيط يتصل بتجربة عاطفية له، فحين عشق سعدى مولاة عبد الله بن معن بن زائدة ـ وكان مولاها يهواها أيضاً ـ نهاه عبد الله عن التشبيب بها فانطلق لهجائه. ومما قاله فيه:

ألا قل لابن معن ذا الـ
ـذي في الود قد حالا
لقد بلغت ما قال
فما باليت ما قالا
ولو كان من الأسد
لما صال ولا جالا
فصنع ما كنت حليت
به سيفك خلخالا
وما تصنع بالسيف
إذا لم تك قتالا
ولو مدّ إلى أذنيـ
ـه كفيه لما نالا

قـصـيـر الـطول والـطوْل
فـلا شـب ولا طـالا

أرى قـومـك أبـطالا
وقـد أصـبـحـت بـطالا[1]

وأقسى ما يؤذي الإنسان أن يجرح في كبريائه ويطعن في أعزّ ما يفخر به وقد أصاب أبو العتاهية غريمه في الموضعين حينما طعنه في رجولته وحينما هزّ من تحته دعامة فخره بما ورثه من أمجاد بطولة أبيه معن بن زائدة وذلك في بيت واحد فحسب هو البيت الرابع وأحسب أن كل ما قاله أبو العتاهية في هجاء عبد الله بن معن من قبل ومن بعد ما كان بذي أثر في نفس ابن معن كما كان هذا البيت وحده. يقول ابن معن هذا: «ما لبست السيف قط فلحمني إنسان إلا قلت إنه يحفظ شعر أبي العتاهية فينظر إليّ بسببه[2]» مشيراً إلى ذلك البيت واليت الذي بَعْدَهُ ولذلك يحتال عل الشاعر حتى يأخذه في مكان ليضربه مائة سوط. فيتكىء أبو العتاهية على هذا المعنى حيث يقول:

(١) آغاني بيروت ج ٤ ص ٢٦.
(٢) السابق نفسه ج ٤ ص ٢٩.

جـلدتـنـي بـكـفـهـا
بـنـت مـعـن بـن زائـدة
وتـراهـا مـع الـخـصـي
عـلـى الـبـاب قـاعـدة
تـتـكـنـى كـنـى الـرجـا
ل بـعـمـد مـكـايـدة
جـلدتـنـي وبـالـغـت
مـائـة غـيـر واحـدة
أجـلديـنـي واجـلدي
إنـمـا أنـت والـدة[1]

وأشد من هذا إيلاماً وإقذاعاً قوله:

ضـربـتني بـكـفـهـا بـنـت مـعـن
أوجـعـت كـفـهـا ومـا أوجـعـتـنـي
ولـعـمـري لـولا أذى كـفـهـا إذ
ضـربتني بـالـسـوط مـا تـركتني[2]

وعلى الرغم من هذا الضرب لم يرعوِ الشاعر وإنما اتصل هجاؤه وكثر حتى امتد الغيظ والغضب من عبد الله إلى

---

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٢٧.
(٢) السابق نفسه.

أخيه يزيد الذي توعد أبا العتاهية فهجاه أيضاً في قصيدة من أولها:

بنى معن ويهدمه يزيد
كذاك الله يفعل ما يريد
فمعن كان للحساد غماً
وهذا قد يسر به الحسود
يزيدُ يزيدُ في منع وبخل
وينقص في العطاء ولا يزيد[1]

فهذه الأبيات مليئة بالمقابلة وخاصة فيما بين أثر يزيد وبين أثر أبيه معن وفي هذه المطابقات اللفظية التي لا يخلو منها بيت كما يعمد إلى المجانسة في اللفط في أكثر من موضع.

ولقد آذى هجاء أبي العتاهية عبد الله بن معن أيذاءً شديداً كان عميق الأثر في نفسه بحيث أثار فيها الهواجس والظنون وكان أشد من ذلك أثراً أن يعيره خليفة مثل الرشيد بهذه الصفات التي خلعها عليه أبو العتاهية في شعره: يقول أبو الفرج: «أخبرني محمد بن القاسم الأنباري قال: حدثنا أبو

(١) السابق نفسه.

عكرمة قال: كان الرشيد إذا رأى عبد الله بن معن بن زائدة تمثل قول أبي العتاهية:

أخت بني شيبان مرت بنا
ممشوطة كورا على بغل[1]

وهو بيت من قصيدة طويلة هي أوجع ما وصل إلينا من شعره في الهجاء عامة، قال فيها:

ياصاحبي رحلي لا تكثرا
في شتم عبد الله من عذل
سبحان من خصّ ابن معن بما
أزرى به من قلة العقل
قال ابن معن وجلا نفسه
على من الجلوة يا أهلي
أنا فتاة الحي من وائل
في الشرف الشامخ والنبل
ما في بني شيبان أهل الحجا
جارية واحدة مثلي
ويلي ويا لهفي على أمرد
يلصق مني القرط بالحجل

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٢٤ ـ ٢٥.

صـافـحـتـه يـومـاً عـلى خـلوة
فـقـال: دع كـفـي وخـذ رجـلي
أخـت بـنـي شـيـبـان مـرت بـنـا
مـمـشـوطـة كـوراً عـلى بـغـل

فالقصيدة فوق ما تحمله من عناصر الرمي بالجهل وقلة العقل والفحش تتضمن عناصر أخرى من حيث الطرافة والإيلام والسخرية تدل على مهارة في الصياغة وبراعة في الخيال بحيث ينساب ذلك منه في بساطة تحكي بساطة هذا الطور النفسي والإجتماعي من أطوار حياته.

وعندما تطورت حياته وتعقدت بعض التعقيد بعد انتقاله إلى مدينة بغداد نجد فن الهجاء عنده ينتقل إلى طور فيه شيء من ذلك التقييد؛ وخير ما يمثل لنا هذا الطور هجاؤه والبة بن الحباب. وقد بدأ والبة ـ لسبب غير واضح ـ بالهجاء وعلى الرغم من أن والبة كان معروفاً بمجونه الفاحش وبذاءة لسانه إلاّ أن أبا العتاهية استطاع أن يبزه في الميدان الذي فرّ منه والبة تاركاً بغداد بعد أن أدركه الغلب[1]، ومن أول ما قاله أبو العتاهية في هجائه:

---

(١) أنظر القصة في أغاني ساسي ج ١٦ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

أوالـبُ أنـت فـي الـعـرب
كـمـثـل الـشـيص فـي الـرطـب
هـلمّ إلـى الـمـوالـي الـصـ
ـيـد فـي سـعـة وفـي رحـب
فـأنـت بـنـا لـعـمـر الّـلـ
ـه أشـبـه مـنـك بـالـعـرب
غـضـبـت عـلـيـك ثـم رأيـ
ـت وجهـك فـانجلى غضبي . . .

إلى أن يقول:

أراك ولـدت بـالـمـريـ
ـخ يـا ابـن سـبـائـك الـذهـب
فـجئـت أقـيـشـر الـخـديـ
ـن أزرق عـارم الـذَّنَـب
لـقـد أخـطأت فـي شـتـمـي
فـخـبـرنـي ألـم أصـب[1]

فهو يطعنه في موضعين: في نسبه العربي، وفي بعض سماته الخلقية ويتناول هذا بطريقته الساخرة اللاذعة إلّا أنها لا تبلغ من الإيلام والإيجاع ما بلغه في هجاء عبد الله بن معن في

---

(١) انظر القصة في أغاني ساسي جـ ١٦ ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

الكوفة. وتُقدم هذه القصيدة دليلاً على تطور هذا الفن عند أبي العتاهية إذ نجد معانيه وألفاظه قد أصابها لون من التهذيب والتعفف خاصة أن بعض جوانب والبة بن الحباب كانت مغمزاً فاحشاً يمكن أن يتناوله أبو العتاهية لولا إرادته إلى ما نراه من بعد عن الفحش والمجانة في التصوير والتعبير. فهو يتهم غريمه بأنه من الموالي ويتخذ من لونه وملامحه ذريعة تلحقه بهم ويؤكد هذا المعنى في مكان آخر حيث يقول:

نطقت بنو أسد ولم تجهر
وتكلّمت خفياً ولم تظهر

أيروم شتمي منهم رجل
في وجهه عبر لمن فكر

وابن الحباب صليبة زعموا
ومن المحال صليبة أشقر

أترون أهل البدو قد مسخوا
شقراً أما هذا من المنكر

وأقذع من هذا أنه يصوّر خلقه على نحو منكر مضحك، فيقول في مطلع هذه القصيدة:

صرح بما قد قلته وأجهر
لابن الحباب وقل ولا تحصر

مــالــي رأيــت أبــاك أســود غــر
بــيــب الــقــذال كــأنــه زرزر
وكــأن وجــهــك حــمــرة رئــة
وكــأن رأســك طــائــر أصــغــر

فهو يريد أن يرمي أهله بالفاحشة ولكنه لا يصرّح بهذا وإنما يلمح تلميحاً بإيراد المخالفة بين لون أبيه الأسود ولونه الأشقر. وذلك تطور في تناول أبي العتاهية للفظ والمعاني إلى أرقى كما أنه تطور إلى أعقد لأن عنصر البساطة الذي وجدناه في هذا الفن عنده بالحيرة بدأ يزايله إلى شيء من التلميح والإشارة اللذين يعتمدان على لون من الإلتواء والتعقيد. كما نلاحظ أن الكلمة عنده بدأ يداخلها عنصر الغرابة وأحسب أن شيئاً ليس هيناً من المعرفة والثقافة يتسرب إلى نفسه.

ومهما يكن فإن هذه المعاني والنعوت التي تدور في هجائه من طعن في الرجولة وحديث عن المهجو ومخاطبته بضمائر التأنيث ورمي بالبخل والجهل وطعن في النسب وتهكم على بعض الصفات الجسمية، هذه المعاني ليست بجديدة في فن الهجاء وإنما هي مطروقة من قبل عند شعراء الهجاء المجيدين بحيث لا يعتبر أبو العتاهية ممن أضافوا شيئاً إلى هذا الفن. لكن شعره في الهجاء ـ الذي سقناه ـ وما وصل إلينا منه

لا ينحدر إلى إسفاف الخلعاء والمجان في عصره ولا يقاس إلى بشاعة أهاجيهم التي كانوا يقصدون منها إشاعة الانحلال والفوضى الخلقية بما يتفق مع مذاهبهم وإن شارك ببعض ذلك كما ذكرنا.

٣ - شعر العتاب:

فقد اختلف العتاب قسوة وعنفاً أو رقة وضعفاً في شعر أبي العتاهية حسب طبيعة الظروف والشخص الذي يعاتبه؛ ولكن من الغريب أن تشتد تلك القسوة في العتاب كلما علا شأن المعاتب واشتدت قرابته للسلطان؛ فنحن نجده مثلاً أعنف ما يكون معاتباً عندما تصطدم حاجته بابن المنصور، وصالح المسكين، وبالعباس بن محمد عم الرشيد وسواهما. ومما قاله في الأول:

أراني صالح بغضاً
فأظهر له بغضا

ولا والله لا ينقض
إلا زدته نقضا

وإلّا زدته مقتاً
وإلا زدته رفضا

ألا يـا مـفـسـد الـود
وقـد كـان لـي مـحـضـا
تـغـضـبـت مـن الـريـح
فـمـا أطـلـب أن تـرضـى[1]

ويقول له أيضاً:

مـددت لمعـرض حبـلاً طـويـلاً
كـأطـول مـا يكـون من الحبـال
حبـال بـالصـريـمـة ليس تـفنى
مـوصـلة عـلى عـدد الـرمـال
فـلا تـنـظر إلـيّ ولا تـردنـي
ولا تقـرب حبـالـك من حبـالـي
فـليت الـرّدم مـن يـأجـوج بيـنـي
وبـيـنـك مثبـتـاً أخـرى الليـالـي
فـكـرش إن أردت لـنـا كـلامـاً
ونقـطع قحف رأسـك بـالقـذال[2]

ويقول للعباس بن محمد عم الرشيد:

هـزززتـك هـزة السـيـف المـحلى
فـلمـا أن ضـربت بـك انثنيت

(١) الديوان ص ٣٤٣ وأغاني بيروت ج ٤ ص ٨٦.
(٢) أغاني بيروت جـ ٤ ص ٨٦.

فهبها مدحة ذهبت ضياعاً

كذبت عليك فيها وافتريت[1]

كما يقول فيه أيضاً:

ألا أيها الطالب المستغيث

بمن لا يفيد ولا يرفد

ألا تسأل الله من فضله

فإن عطاياه لا تنفد

إذا جئْت أفضلهم للسؤا

ل رد وأحشاؤه ترعد

كأنك في خشية للسؤا

ل في عينه الحية الأسود[2]

فالتعرض لوجوه الدولة وذوي رحم السلطان على هذا النحو من شاعر من الموالي كأبي العتاهية أمر خطير لا تحمد مغبته ولا تحسن عاقبته على الشاعر، وقد همّ العباس فعلاً بأن يجهد في قتله. ولكن براعته في صوغ شعره وإخفاء مقاصده كانت تنجيه من طائلة العقاب. وكانت طريقته في الوعظ والتزهيد هي خير وسيلة يمكن أن يفر بها إلى النجاة.

---

(١) الديوان ص ٣٤٧.

(٢) أغاني بيروت ج ٤ ص ٥١.

٤ ـ شعر المدح:

ولكنّ أبا العتاهية وإن عاتب بعض رجال الدولة العباسية وقسا في عتاب بعضهم إلّا أنه في أحيان كثيرة مدحهم ولا سيما عندما قدم بغداد شاباً طامحاً مفعم النفس بالآمال الواسعة في النشب والذكر.

وهو على العموم كان يقتنص الظروف الملائمة ليجعل منها مناسبات لإنشاد الشعر يرسله هنا وهناك فيعود عليه بالمال والصيت ومن ذلك قصده إلى المهدي ومدحه بالقصيدة التالية:

ومهمه قد قطعت طامسه
قفر على الهول والمحاماة
بجسرة جسرة عذافرة
خوصاء عيرانة علنداة
تبادر الشمس كلما طلعت
بالسير تبغي بذاك مرضاتي
يا ناق خبّي بنا ولا تعدي
نفسك مما ترين راحات
حتى تناخي بنا إلى ملك
توجّه الله بالمهابات

عـليـه تـاجـان فـوق مـفـرقـه

تـاج جـلال وتـاج إخـبـات

يـقـول لـلريـح كـلمـا عـصـفـت

هـل لـك يـا ريـح في مبـاراتي

مـن مـثـل عـمـه الـرسـول ومـن

أخـوالـه أكـرم الـخـئـولات(١)

تبدو حالته النفسية واضحة في حثه الناقة على الإسراع، بل إنها ليست في حاجة إلى هذا الحث لأنها وهي النشيطة العيرانة العذافرة لا تبغي إلا مرضاته بأن توصله إلى غايته ومن الواضح أن عناصر المديح عنده تتكىء على وصف الممدوح بالمهابة والجلال جلال التاج والملك وجلال التواضع والخشوع وعلى الكرم السريع الذي يسبق الريح وعلى النسب الذي يصله بالرسول ﷺ من ناحية الأب كما يصله بالتبابعة من ناحية الأم.

فمـا مثـل بيتيـه في الـعـالمين

أعـز بـنـاء ولا أرفـع

فـبـيـت بـنـاه لـه هـاشـم

وبـيـت بـنـاه لـه تـبـع

---

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٦٠.

ولـــو حـــاول الـــدهـــر مـــا في يـــديـ
ـه لـــعـــاد وعـــرنـــيـــنـــة أجـــدع[1]

ويقول في المهدي أيضاً:

سقيت الغيث يـا قـصـر الـسـلام
فـنـعـم مـحـلـة الـمـلـك الـهـمـام
لـقـد نشـر الإلـه عـلـيـك نـوراً
وحـفـك بـالـمـلائـكـة الـكـرام
سـأشـكـر نعمـة المهـدي حتى
تـدور عـلـيّ دائـرة الـحـمـام
لـه بـيـتـان: بـيـت تـبـعـي
وبـيـت حـل بـالـبـلـد الـحـرام[2]

كما يقول في كرمه وقوته المرهوبة:

عـلـم الـعـالـم أن الـمـنـايـا
سـامـعـات لـك فـيـمـن عـصـاكـا
فـإذا وجـهـتـهـا نـحـو طـاغ
رجـعـت تـرعـف مـنـه قـنـاكـا

---

(١) العمدة ج ٢ ص ١٢٧.

(٢) أغاني بيروت ج ٤ ص ٣٤.

ولــو أن الـريــح بــارتـك يــومــاً

في سمــاح قصـرت عن نـداكـا[1]

وعلى مثل هذه العناصر: المهابة والقوة والنسب والندى يعتمد أيضاً في مدح الخليفة الهادي ومن بعده أخيه الرشيد وإن كان يتكىء في مدح الرشيد بالإضافة إلى ما ذكرناه على الإشادة بقوته العسكرية وبصلاحه وتقواه. فهو يقول للهادي يوم ولي الخلافة:

يـضــطرب الخــوف والــرجــاء إذا

حــرك مــوسـى القـضيـب أو فــرك

مــا بين الـفضــل فـي مغـيب ومــا

أورد مــن رأيــه ومــا أصــدر

فـكم تــرى عــز عـنــد ذلـك من

مـعشــر قــوم وذل مــن مـعـشــر

يـثمــر مـن مسّــه الـقضـيب ولــو

يــمــســه غــيــر لــمــا أثــمــر

من مثـــل مــوسى ومثـــل ولـــده الـ

ـمهــدي أو مثــل جــده جعفــر[2]

---

(١) الديوان ص ٣١٣.

(٢) السابق ص ٣١٤.

والحقيقة أن مدة خلافة الهادي كانت قصيرة ولعل ذلك يقدم سبباً لقلة ما ورد إلينا من شعر أبي العتاهية في مدحه على حين يكثر نسبياً في مدح الرشيد. ولقد كثرت المناسبات في عهد الرشيد بحيث وفرت له الفرص لكي تتعدد قصائد مدحه وتتنوع فكشفت لنا بذلك عن مقومات وعناصر جديدة في شعره؛ إذ تبدو في هذا الشعر قدرة على الوصف والتخيّل والتصوير، وآثار الثقافة ومظاهر القوة في الصياغة ولننظر إلى قوله:

جرى لك من هارون بالسعد طائره
إمام اعتزام لا تخاف بوادره

إمام له رأي حميد ورحمة
موارده محمودة ومصادره

هو الملك المجبول نفساً على التقى
مسلمة من كل سوء عساكره

وهارون ماء المزن يشفي من الصدى
إذا ما الصدى بالريق غصت حناجره

وأوسط بيت في قريش لبيته
وأول عزّ في قريش وآخره

وزحف له تحكي البروق سيوفه
وتحكي الرعود القاصفات حوافره

إذا نكب الإسـلام يـومـاً بنكبـة
فهـارون من بين البـريـة ثـائـره
ومن ذا يفوت الموت والموت مدرك
كـذا لم يفت هارون ضـد ينافـره[1]

وبمثل هذه القوة يمدحه عندما عقد ولاية العهد لبنيه الثلاثة الأمين والمأمون والمؤتمن فيقول:

رحلت عن الـربـع المحيـل قعـودي
إلـى ذي زحـوف جـمـة وجـنـود
وراع يـراعي الليـل في حفظ أمـة
يـدافـع عنهـا الشـر غيـر رقـود
بـألـويـة جبـريـل يقـدم أهلهـا
ورايـات نـصـر حـولـه وبـنـود
تجـافى عن الـدنيـا فـأيقن أنهـا
مـفـارقـة لـيـست بـدار خـلود
وشـد عـرى الإسـلام منـه بفتيـة
ثـلاثـة أمـلاك ولاة عـهـود
هـم خيـر أولاد لـهم خيـر والـد
لـه خيـر آبـاء مـضـت وجـدود

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ١٧ والديوان ٣١٤.

بنو المصطفى هارون حول سريره
فخير قيام حوله وقعود
جُدودُهم شمس أنت في أهلة
تبدت لراء في نجوم سعود[1]

وهكذا نجد أن أعمال الرشيد العسكرية كانت توحي إلى أبي العتاهية بالمعاني الجديدة في شعره يصوغها في الكلمة القوية المناسبة والبحور الطويلة والموسيقى الصاخبة القارعة بحيث لا تجتمع هذه العناصر متكاملة إلاّ حينما يمدح هذا الخليفة الكبير. فقد مدح من قبله أباه المهدي وأخاه الهادي ومدح غير هؤلاء وزراء كالفضل بن الربيع وقواد كعمرو بن العلاء ويزيد بن مزيد الشيباني وهما من ذوي الأعمال البارعة في الناحية العسكرية وقد توافرت في مديحه لهؤلاء بعض عناصر القوة في الصياغة والبناء.

٥ ـ شعر الوصف:

لاحظ بعض القدامى أن أبا العتاهية كان يجيد الوصف[2]؛ وعلى الرغم من أنه لم تصلنا قصائد له متنوعة

(١) السابق ج ٤ ص ١٠٦ والديوان ص ٣٢١.
(٢) طبقات ابن المعتز ص ٢٢٨.

خاصة بالوصف إلاّ أننا نستطيع أن نتبين ذلك في ثنايا شعره في الأغراض الأخرى وأحسب أن ولوعه بالوصف أغراه أن يطيل في مقدمة القصيدة التي نحن بصددها، خاصة أنها تحمل إليه ذكرى أيام لاهبة وليال عابثة تثير فيه الحنين إلى ذلك المجلس الذي يشبه غرفة من غرف الجنة وهو مع ندمائه الفتيان الأقوياء الجسورين الذين لا يهابون شيئاً في الحياة ولا يرهبون شيئاً من الدهر؛ يعومون في بحر من السرور. يقول:

لهفي على الزمن القصير
بين الخورنق والسدير
إذ نحن في غرف الجنا
ن نعوم في بحر السرور
في فتية ملكوا عنا
ن الدهر أمثال الصقور
ما منهم إلاّ الجسو
رُ على الهوى غير الحصور[1]

وبعد أن ذكر ذلك الزمن القصير مع أترابه ينتقل إلى وصف الخمر والساقي فيقول:

---

(١) أنظر القصيدة في الأغاني بيروت ج ٤ ص ٦٢ - ٦٤.

يـتـعـاورون مـدامـة
صـهـبـاء مـن حـلب الـعـصـيـر
عـذراء ربـاهـا شـعـا
ع الـشـمس فـي حـر الـهـجـيـر
لـم تـدن مـن نـاز ولـم
يـعـلق بـهـا وضـر الـقـدور
ومـقـرطـق يـمـشـي أمـا
م الـقـوم كـالـرشـأ الـفـريـر
بـزجـاجـة تـسـتـخـرج الـسـ
ـر الـدفـيـن مـن الـضـمـيـر
زهـراء مـثـل الـكـوكـب الـ
ـدري فـي كـف الـمـديـر
تـدع الـكـريـم ولـيـس يـد
ري مـا قـبـيـل مـن دبـيـر[1]

فهم لا يشربون إلاّ الخمر الجيدة أو الممتازة صهباء من حلب العصير؛ وهي بكر لم يقربها أحد قبلهم تربت في شعاع الشمس على مهل ولم تحرقها؛ وهي نقية طازجة يأتي بها ساق كالظبي يتبختر يحملها في زجاجة وضيئة في كفه لا تلبث أن

(١) السابق نفسه والصفحة نفسها.

تلعب بالعقول فتخرج الأسرار من الضمائر وتتركهم سكارى.

ولكن المجلس فيه شيء أكثر من الخمر، فيه غانيات.

ومــخــصــرات زرنــنــا
بــعــد الــهــدوّ مــن الــخــدور
ريــا روادفــهــن يــلـ
ـبسن الـخـواتـم فـي الـخـصـور
غــرّ الــوجــوه مــحــجــبــا
ت قــاصــرات الــطـرف حــور

وبعد أن يترك هذا المشهد الذي يدقق في وصفه ليظهر عليهن آثار النعمة والجمال ويقفنا فيه على تفصيلات في الملابس والألوان والروائح في استعارات وكنايات بارعة ينتقل إلى وصف المطايا التي أقلتهم إلى الخليفة فيقول:

إلــى أمــيــن الله مــهـ
ـربُــنــا مــن الــدهــر الــعــثــور
وإلــيــه أتــعــبــنــا الــمــطا
يــا بــالــرواح وبــالــبكــور
صــعــر الــخــدود كــأنــمــا
جــنــحــن أجــنــحــة الــنــســور
مــتــســربــلات بــالــظلا
م عــلــى الــســهــولــة والــدعــور

حتى وصلن بنا إلى
رب المدائن والقصور
ما زال قبل فطامه
في سن مكتهل كبير[1]

فهو أخيراً يصل إلى الخليفة الذي رشد قبل الفطام بعد أن تعبت بهم المطايا السريعة الماهرة في السير على السهل والوعر هاربين إليه من تلك العثرات ومن الشرور التي كانوا يقارفونها؛ فهو أمين الله الذي تحسن التوبة على يديه.. وفي هذا البيت الصورة الناطقة بسمات نفس الشاعر العابث الماجن الذي تهفو نفسه إلى المثاب وترك الصبابات وارتياد طريق آخر يصبو إليه ويريد نفسه عليه. ونحن إذا تأملنا هذه القصيدة جيداً وجدنا فيها عبارات وصوراً تظهر بين الحين والحين لتدلنا على تعليق نفس الشاعر بذلك الطريق. ولننر إلى قوله: «غرف الجنان» «الكوكب الدري» «قاصرات الطرف» «حور» «صعر الخدود» نجدها جميعاً مستوحاة من القرآن الكريم في صورة بعيدة عن التأني والتعمد دليلاً على تأثره بالكتاب الكريم.

هذا وعلى الرغم من أن ما بين أيدينا من شعره في فن الوصف ليس بالشيء الكثير إلّا أن ما مر بنا في فن الغزل حينما

---

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٦٤.

كان يقف أمام جمال محبوبته ليصفه وما نراه في هذه القصيدة الرائية يدلنا على أنه يجيد النظر إلى الأشياء فيصفها في دقة وتفصيل مع براعة في التصوير وروعة في الخيال وجمال في التشبيه بحيث تطالعنا في تناوله للوصف عين مصور تحسن التقاط المناظر وعرضها في الإطار المناسب من أدوات البيان.
والحقيقة أن فن الوصف عند أبي العتاهية غالباً ما يحمل إلينا إلى جانب جمال الشكل والصورة ضروباً من الألوان والروائح والطعوم في عرض مبتكر وخيال خالق بديع. ولننظر إلى هذه الصورة الطريفة التي يصوّر فيها البنفسج فيقول:

ولا زوردية تزهو بزرقتها
بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها ورقات القضب تحملها
أوائل النار في أطراف كبريت[1]

قد تكون رائحة الكبريت منفّرة ولكن التلوين في الصورة بديع حيث يلون زهرة البنفسج بالزرقة ولكنها ليست زرقة خالصة وإنما هي زرقة مختلطة بألوان أخرى عدة كالتي نراها في لهيب يتصاعد من أطراف الكبريت وتنعكس أشعة الكبريت على وجوه اليواقيت الحمراء المنتشرة في الروض فيصبح أمام

(١) شذرات الذهب ج ٢ ص ٢٦.

البصر مجموعة رائعة من الألوان لهذه الزهرة التي تزهو وتختال فوق قضيبها الرقيق على لداتها الحمراوات في الرياض.

لا عجب أن يكون صاحب هذه العين المبدعة في التصوير واثقاً من فنه وقدرته فيسبق الشعراء إلى وصف فرس للرشيد فيحصرون جميعاً.

حدث ابن الأعرابي قال: أجرى هارون الرشيد الخيل فجاءه فرس يقال له المشمّر سابقاً وكان الرشيد معجباً بذلك الفرس فأمر الشعراء أن يقولوا فيه فبدرهم أبو العتاهية فقال:

جاء المشمّر والأفراس يقدمها
هوناً على رسله منها وانبهرا
وخلف الريح حسرى وهي جاهدة
ومر يختطف الأبصار والنظرا

فاجزل صلته وما جسر أحد بعد أبي العتاهية أن يقول فيه شيئاً»[1].

٦ ـ شعر الزهد:

وعلى هذا النحو نستطيع أن نمضي مع شعر أبي العتاهية بعد أن رأينا كيف أن سمات هذا الشعر كانت تتطور مع أطوار

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٤٥.

حياته بحيث يمكن أن تصورها من النواحي الوجدانية والعقلية والنفسية جميعاً، كما تصور انعكاسات البيئة والحياة من حوله وعلاقته بهما على نفسه ووجدانه ومن خلال ذلك نستطيع أن نقف على كثير من الصور التي تحكي لنا ملامح للعصر والمجتمع والأخلاق. حتى إذا ما وصلنا إلى الطور الأخير من حياته وجدنا فن الشعر عنده يستقر على قرار لا يحيد عنه الشاعر بعد أن استقرت مقوماته الشخصية والفنية على صورة عامة بحيث أصبح لا يتعلق إلّا بالزهد أو التزهد يريد نفسه على طريقه ويتفرّغ لإنشاء الشعر فيه ويتخصص في هذا الفن نابذاً وراء ظهره كل الموضوعات الأخرى وبذلك نستطيع أن نقرر منذ الآن أن شعره في الزهد يعد أغنى الموضوعات التي بين أيدينا من حيث هو مصور لنفسه وشخصه وتجاربه ومذهبه وتطور ذلك كله بعد أن انظره في بوتقة بيئته وعصره على حرارة معاملاته مع الناس واحتكاكه بالآثار العقلية والإجتماعية والسياسية. كما نستطيع أن نقرر أنه سلك ثلاث طرق في هذا الشعر؛ حين اتخذ للتزهيد طريق تسجيل انطباعاته عن الحياة والناس والقيم والأخلاق وفي هذا الطريق يكشف لنا عن كثير من ماضيه الماجن العابث ويبكي على أيام الشباب والصبابات ونزوات ويكره المشيب وما ينذر به من فناء ويخوّف من الحساب والعقاب والجحيم، كما يكشف لنا عن مذهبه

المانوي الذي يطبع الحياة بطابع الشر ويسم الناس والأخلاق بالفساد؛ وحين يقف من الناس موقف الواعظ يسلط عليهم زجره ووعيده ويصب عليهم وعلى حياتهم وأخلاقهم جام غضبه ويهددهم بالموت والفناء والعذاب ويخوفهم من الموت وسكراته وآلامه والقبر ووحشته وعفره وترابه؛ وحين يقف في أناة منهم موقف الحكيم المجرّب الذي يسوق الحكم في صورة قرارات قوية يؤكد أنه وصل إليها بعد تأمل وخبرة وثقافة. وهو يخلط في هذا كله بين الروح الإسلامية التي تقوم على التوحيد وبين ثنوية المانوية التي تقوم على عنصري الخير والشر أو النور والظلمة بحيث ينتصر الشر في هذه الحياة دائماً، ومن ثم طبع زهده بطوابع السلبية والإستسلام والمذلة والتشاؤم.

أما أباب تحول حياة أبي العتاهية إلى الزهد فيشير إليها أبو سلمة الغنوي قائلاً: «قلت لأبي العتاهية: ما الذي صرفك عن قول الغزل إلى قول الزهد؟ قال إذاً والله أخبرك إني لما قلت:

الله بيني وبين مولاتي
أبدت لي الصد والملامات
منحتها مهجتي وخالصتي
فكان هجرانها مكافاتي

هيمنها حبها وصيرني
أحدوثة في جميع جاراتي

رأيت في المنام في تلك الليلة كأن آتياً أتاني فقال: ما أصبت أحداً تدخله بينك وبين عتبة يحكم لك عليها بالمعصية إلّا الله تعالى فانتبهت مذعوراً وتبت إلى الله تعالى من ساعتي من قول الغزل»[1].

ومهما يكن من أمر هذه الرواية فإنها تدلنا على الاتجاه الذي عقد العزم على المضي فيه وهو الاتجاه الذي فصلنا مبرراته وأسبابه وهو الانصراف إلى قول الشعر في الزهد. ويؤيد هذا العزم عنده تلك القصيدة الرائعة التي أنشأها بعد أن استبد به الناس من كل آماله في الدنيا ويظهر في هذه القصيدة أن تجربة حبه عتبة كانت من التجارب التي هزت كيانه بحيث لبس بعدها التصوف[2]. وقال:

قطعت منك حبائل الآمال
وحططت عن ظهر المطي رحالي
ويئست أن أبقى لشيء نلت مـ
ـما فيك يا دنيا وأن يبقى لي

(١) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٥٨.
(٢) انظر مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧٥.

فوجدت برد اليأس بين جوانحي
وأرحت من حلي ومن ترحالي
ولئن يئست لرب برقة خلب
برقت لذي طمع وبرقة آل
ما كان أشأم إذ رجاؤك قاتلي
وبنات وعدك يعتجلن ببالي
فالآن يا دنيا عرفتك فاذهبي
يا دار كل تشتت وزوال
والآن أبصرت السبيل إلى الهدى
وتفرغت هممي عن الأشغال
ولقد أقام لي المشيب نعاته
يفضي إلي بمفرق وقذال
ولقد رأيت الموت يبرق سيفه
بيد المنية حيث كنت حيالي
ولقد رأيت عُرَا الحياة تخرمت
ولقد تصدى الوارثون لمالي
ولقد رأيت على الفناء أدلة
فيما تنكر من تصرف حالي
وإذا تناسبت الرجال فما أرى
نسباً يقاس بصالح الأعمال

وهي قصيدة طويلة[1]، وتفيض بالإنفعال الصادق والعزم القوي على الطريق الذي أدت إليه فلسفته في الحياة بعد أن خبرها وبلاها وتأملها فأطال التأمل وأمعن في النظر فدقق الإمعان ثم وصل إلى النتيجة القوية الواضحة التي وثق بها. وتكاد تكون هذه القصيدة أنموذجاً متكاملاً لشعره في الزهد من حيث هي جامعة لأكثر خصائصه الفنية في هذا الفرض حاوية لكثير من أسباب فلسفته وأغراضها.

ولقد بلغ من قوة هذه القصيدة في صدق انفعالها وتعبيرها أن أثارت ابن الأعرابي حتى قال في مجلس بعض الخلفاء: «إني ما رأيت قط شاعراً أطبع ولا أقدر على بيت منه وما أحسب مذهباً إلّا ضرباً من السحر»[2].

ولقد عبر أبو العتاهية عن رأيه في الحياة في شعره الزهدي كثيراً وانفق في هذا التعبير طويلاً. وأكثر ما يستغرق همه في نظرته إلى الحياة أنها ليست سوى آمال ضائعة وسراب خادع وخيال سريع التلاشي. يقول:

كأن محاسن الدنيا سراب
وأي يد تناولت السرابا

(1) الديوان ص ١٩٤ - ١٩٧.
(2) السابق ص ١٩٧.

وإن يــك مـنيــة عـجلت بـشـيء
تــســربــه فــإن لـــهــا ذهـــابــا[1]

ويقول:

أراك وإن طــلبــت بــكـــل وجـــه
كـحلم الـنــوم أو ظــل الســحــاب
أو الأمس الــذي ولــى ذهــابــا
وليس يعــود أو لـمــع الســراب[2]

حتى هذا اللمع السريع وهذا الحلم المولي ليس فيه راحة ولا حلاوة بل كل ما فيه ممزوج بالعناء والمرارة، منغّص فاجع مهم. يقول:

فــلا تعش الــدنيــا أخيّ فــإنمــا
يــرى عــاشق الــدنيا بجهــد بـلاء
حــلاوتـهــا مـمــزوجــة بــمــرارة
وراحــتـهــا مـمــزوجــة بـعـنــاء[3]

كما يقول:

مــا زالــت الــدنيــا مــنغّــصــة
لم يخــل صــاحـبهــا مـن البـلوى

(١) السابق ص ١٣.
(٢) السابق ص ٢٤.
(٣) السابق ص ٢.

دار الـفجـائـع والـهمـوم ودار الـ
ـبـؤس والأحـزان والـشـكـوى[1]

ولعلنا نستطيع أن نصل إلى خلاصة رأيه في الحياة في كثير من جوانبها كما رآها وتصورها، شراً وبلاءً وهموماً. وعلى أساس من هذا عرض ما ينبغي أن يكون عليه السلوك بها، كما عرض بعض الأسس المثالية التي تصح بها حياة المرء في الدنيا فيقول:

طلبتُك يا دنيـا فأعـذرت في الطلبْ
فمـا نلت إلّا الهم والغم والـوصبْ
فلمـا بـدا لي أنني لـست واصـلا
إلـى لـذة إلّا بـأضعـافهـا تعب
وأسرعت في ديني ولم أقضِ بغيتي
هـربت بديني منـك إن نفع الهـرب
تخليت ممـا فيـك جهـدي وطـاقتي
كمـا يتخلّى القوم من عـرة الجـرب
فمـا تم لي يـومـاً إلى الليـل منـظر
أسـر بـه إلّا أتـى دونـه شـغـب

---

(١) الديوان ص ٥.

وإنــي لــمــمــن خــيّــب الله ســعــيــه
لئن كنت أرعى لقحــة مـرة الحلب
أرى لـــك أن لا تــســتــطــيــب لــخــلــة
كــأنــك فيهــا قــد أمنت من العـطب
ألــم تــرهــا دار افتــراق وفـجـعــة
إذا رغب الإنسان فيها فقـد ذهب[1]

والقصيدة في رأيي تصور تحولاً نفسياً في حياته بعد أن طلب الدنيا وعكف على طلابها فلم يجد فيها إلاّ الهم والغم؛ وأن كل لذة سبيلها أضعاف من التعب. وأحسب أن أبا العتاهية أقام زماناً طويلاً يتفكر ويتدبر ويمعن في النظر ويقلب الطرف مرة بعد مرة على حدّ تعبيره لأنه دائماً يحاول أن يقفنا على هذا الأمر في شعره، فهو إنما يريد أن يؤكد أن الزهد في الدنيا هو السلوك الأمثل حيث الأخلاق كنوز من الذهب وحيث القناعة والعفة والحلم والأدب أدوات الفضل التام والعقل الصحيح يقول:

وســـربلت أخــلاقي قنــوعــاً وعفــة
فعنـدي بأخـلاقي كنـوز من الـذهب
فـلم أرَ حــظّاً كــالـقــنــوع لأهــله
وأن يجمل الإنسان ما عاش في الطلب

(١) السابق ص ٢٦.

ولم أرَ فضلاً تم إلّا بشيمة
ولم أرَ عقلاً صح إلّا على أدب

ولم أرَ في الأعداء حين خبرتهم
عدواً لعقل المرء أعدى من الغضب(1)

أمّا لماذا ينبغي أن يفزع المرء إلى الزهد فإن أبا العتاهية يبرر ذلك بأنه نظر في أحوال الناس وأخلاقهم وطباعهم فوصل إلى رأي غير حسن فيهم، بل لقد أساء الظن بهم جميعاً. يقول:

فسد الناس جميعاً فأمسى
خيرهم من كفّ عنّا أذاه(2)

ويقول:

طغى الناس حتى رأيت اللبيـ
ـب في غيّ طغيانه يعمه(3)

ولا يكتفي برميهم بالفساد والطغيان، وإنما يضيف إلى ذلك أنهم أنانيون جشعون يقول:

فما يعرف العطشان من طال ريه
وما يعرف الشبعان من هو جائع

(١) الديوان ص ٢٦.
(٢) السابق ص ٢٨٧.
(٣) السابق نفسه والصفحة نفسها.

وصـارت بطون المـرملات خميصـة
وأيتــامهم منهم طــريــد وضــائــع
وأن بـــطون الـمكثـرات كـأنـمـا
تنقنق في أجــوافهـن الضـفـادع(١)

ولذلك ينبغي أن ينعى الإنسان على نفسه أن تأخر إلى هذا الزمن. يقول:

فــلعبــرة أخــرت لــلزمـن الــذي
هــلك الأرامــل فــيــه والأيــتــام
زمـن مكـاسـب أهـله مــدخــولــة
دخــلاً فــروع أصــولــه الآثــام
زمن تحــامى المكـرمــات سـراتــه
حتى كــأن الـمكــرمـاتِ حــرام
زمـن هــوت أعْــلامــه وتـقــطعـت
قــطعــاً فــليس لأهــله أعــلام
والنــاس يبتــدعــون في أهــوائـهـم
بـدعاً فقـد قعـدوا هنـاك وقـامـوا(٢)

وأبو العتاهية يريد أن يؤكد أنه لقي في شيم الناس ضلالاً

---

(١) السابق ص ١٥٠.
(٢) السابق ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

وفساداً كما وجد منهم عنتاً وبلاءً، بحيث تكونت في نفسه هذه الصورة القائمة عنهم، وعمم الحكم عليهم وهو يعبر عن ذلك في قصيدة منها:

فيا رب إن الناس لا ينصفونني
وإن أنا لم أنصفهم ظلموني
وإن كان لي شيء تصدوا لأخذه
وإن جئت أبغي شيئهم منعوني
وإن نالهم رفدي فلا شكر عندهم
وإن أنا لم أبذل لهم شتموني
وإن وجدوا عندي رخاء تقربوا
وإن نزلت بي شدة خذلوني
وإن طرقتني نكبة فكهوا بها
وإن صحبتني نعمة حسدوني[1]

ولذلك يرى أن من الخير اعتزال هؤلاء الناس والبعد عن دنياهم فلا يراهم ولا يحن إليهم. يقول:

سأمنع قلبي أن يحن إليهم
وأحجب عنهم ناظري وجفوني

(١) الديوان ص ٢٥٥.

وأقــطع أيــامـي بيــوم سـهــولـة
أزجي بــه عمـر ويــوم حــزوني[1]

ويؤكد ذلك حين يقول:

أليفــك يــا دنيــا كثيــر غمُــومُــه
فليس نجـاة منك غيـر اعتـزالـك[2]

ومن الأسباب التي تدعو إلى الزهد عنده تقدم العمر بالإنسان دلالة على اقترابه من الموت والشيب هو النذير الذي يقرع الناقوس فوق رأس المرء في خريف العمر. وأبو العتاهية من الشعراء الذين صوروا حالتي الشيب والشباب أبرع تصوير وخاصة إذا ما استبدّ به الحنين إلى الشباب؛ وكثير ما كان يستبد به كلما أحسّ بخضاب الشيب يتوهّج في رأسه وهو في هذا يعبر عن طبيعة إنسانية دقيقة دائمة التعلق بماضيها في الشباب وصبواته حين الفجيعة في تولي الشباب ومضيه. يقول:

كــبــرنــا أيــهــا الأتــراب حــتــى
كــأنــا لـم نكـن حينـاً شـبـابـا
وكـنـا كـالـغـصـون إذا تـثـنـت
من الـريحـان مـونقـة رطـابـا[3]

---

(٢) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٣) السابق ص ١٨٩.

(٤) السابق ص ١٤.

ويفيق على وخزات من الواقع الذي يعيش على أرضه والمستقبل الذي ينتظره فيقول:

إلى كم طول صبوتنا بدار
رأيت لها اغتصاباً واستلابا
ألا ما للكهول وللتصابي
إذا ما اغتر مكتهل تصابى
فزعت إلى خضاب الشيب مني
وإن نصوله فضح الخضابا
مضى عني الشباب بغير ودي
فعند الله أحتسب الشبابا
وما من غاية إلّا المنايا
لمن خلقت شبيبته وشابا

وهو القائل بهذه الأبيات الشهيرة:

بكيت على الشباب بدمع عيني
فلم يغن البكاء ولا النحيب
فيا أسفاً أسفت على شباب
نعاه الشيب والرأس الخضيب
عريت من الشباب وكان غضا
كما يعرى من الورق القضيب

فيــا ليـت الشبــاب يعــود يــومــاً
فــأخبــره بمــا فعــل المشيــب[1]

والتعلّق بالشباب في الواقع تعلق بالحياة وتشبث بها، والفزع من المشيب خوف من الموت وأبو العتاهية دائماً لا يرى في الشيب سوى الناعي الذي ينذر بـدنوّ الأجـل، ويدفـع الإنسان إلى حتفه في صراع عجيب بين اندفاع إلى هاوية الموت ملح شديد وبين تشبث بالحياة يائس يقول:

ومــدافــع لــلشيــب يـخـضبــه
والشيب نحــو المــوت يــدفعــه[2]

كما يقول:

الـليــل شيـب والنـهــار كــلاهمــا
رأس بكثــرة مــا تــدور رحــاهمــا
يـتنــاهـبــان لـحــومـنــا ودمــاءنــا
ونفــوسنــا جهــراً ونحن نــراهمــا
الشيب إحــدى الميتتيـن تقــدمـت
إحــداهمـا وتــأخــرت إحــداهمـا

---

(١) الديوان ص ٢٣.
(٢) السابق ص ١٦٢.

فكأن من نزلت به أولاهما
يوماً وقد نزلت به أخراهما[1]

ونزعة الجبر واضحة أشد الوضوح في شعره الزهدي، فهو يريد أن يدل على أن الرضا والتسليم من أهم عناصر الزهد. وقد مر بنا أنه كان يؤمن بالجبر ويجادل في ذلك المعتزلة فإذا نظرنا في شعره وجدنا هذه النزعة شائعة فيه شيوعاً لا يدع مجالاً للشك في قوله بالجبر وعلى ذلك فالإنسان غير مختار في وجوده ولا في أفعاله ولا في أقواله يقول:

جفت الأقلام من قبل بما
ختم الله علينا وكتب[2]

ويقول:

سبقت القضاء بكل ما هو كائن
والله يا هذا لرزقك ضامن[3]

ويقول:

يقدر الإنسان في نفسه
أمراً ويأباه عليه القضا[4]

(١) السابق ص ٣٠٧.
(٢) الديوان ص ٢١.
(٣) السابق ص ٢٦٧.
(٤) السابق ص ٤.

ويقول في التسليم:

أيــن الــمــفــر مــن الــقــضــا
ء مــشــرقــاً ومــغــربــا

انــظر تــرى لــك مــذهــبــا
أو مــلجــأ أو مــهــربــا

وعلى هذا فالإنسان عنده معذور فيما يأتي وما يدع من الأمور لأنه لا حيلة له فيه وهو لن يدرك شيئاً بمسعاه ما لم يساعده القضاء والقدر:

تــوق مــا تــأتــيــه ومــا تــذر
جــمــيــع مــا أنــت فــيــه مــعــتــذر

مـا أبعـد الشيء منـك مـا لمْ يُسَـا
عِـدْكَ عـلـيـه الـقـضــاء والقــدر[1]

ويؤكد هذا المعنى في قوله:

الله ينجي من المكــروه لا حــذري
يحكمــه الخيــر والأرزاء في الشــر

قـد يسلم المـرء ممــا قـد يحــاذره
وقـد يصير إلى المكـروه بالحـذر[2]

(١) السابق ص ٩٥.

(٢) السابق ص ١١٥..

ويعني هذا أن الإنسان معطل الإرادة تماماً وهذه سلمية بعيدة كل العبد عن روح الإسلام، يتكىء عليها أبو العتاهية كثيراً في شعره يقول:

لعمر أبي لو أنني أتفكر
رضيت بما يقضي علي ويقدر

توكل على الرحمن في كل حاجة
أردت فإن الله يقضي ويقدر

متى ما يرد ذو العرش أمراً بعبده
يصبه وما للعبد ما يتخير[1]

ومعنى هذا أنه كان يصطنع مذهب الجبر إرضاءً لنزعته المانوية التي تنسب كل فعل من خير وشر إلى القوى الغيبية.

وصورة الزهد أو صورة الزاهد في ذهن أبي العتاهية لا تخلو من آثار غير إسلامية حين يرى في الزهد اعتزالاً للحياة والناس وابتعاداً عنهم واقتصاراً على التقشف بما هو أشبه بالحرمان وقد رأيناه يحاول أن يطبق هذه الصورة على نفسه فجنح إلى ذلك الوضع الشاذ الذي رآه عليه صديقه مخارق. وتكاد دعوته إلى الزهد ومواعظه فيه تقتصر على هذا الجانب الذي يشبه الرهبة في مصادرها المختلفة وكأنه يريد في الأبيات

---

(١) الديوان ص ١٠٢.

الآتية أن يحدد لنا معالم صورة الزهد التي يريدها إذ يقول:

رغيف خبز يابس
تأكله في زاويهْ
وكوز ماء بارد
تشربه من صافيهْ
وغرفة ضيقة
نفسك فيها خاليهْ
أو مسجد بمعزل
عن الورى في ناحيهْ
تدرس فيه دفتراً
مستنداً بساريهْ
معتبراً بمن مضى
من القرون الخاليهْ[1]

فهي صورة الإنسان الذي يحرم نفسه من كل شيء من الدنيا حتى ليكاد يحرمها من الطعام والشراب إلاّ من رغيف يابس وكوز ماء بارد يتناولهما في حجرة ضيقة يقصر حياته فيها أو في مسجد بشرط اعتزال الناس والابتعاد عنهم. وهي صورة لحياة الرهبنة السلبية التي تبعد كل البعد عن روح الإسلام الإيجابية.

---

(١) السابق ص ٣٠٧.

٧ ـ شعر الموعظة:

دخل الشعر إلى ميدان الوعظ عن طريق جماعة كان قوامها الفقهاء والزهاد والعباد وخاصة أصحاب البيان منهم؛ وكانت لهؤلاء الوعاظ مجالس وحلقات يتحدثون فيها إلى الناس بالمواعظ المختلفة في شؤون الدنيا والتزهيد فيها والتذكير بالموت والحث على العبادة وطاعة الله؛ ويذكر منهم الجاحظ صالحاً المري وعبد الواحد بن زياد الثقفي وأبا الأسود وأبا العلاء وإبراهيم بن أدهم[١] وسواهم. ويروى أن إبراهيم بن أدهم دخل على المنصور فقال له: كيف شأنكم يا أبا إسحاق فقال:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا
فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع[٢]

وسئل سفيان الثوري مرة عن التقى فأنشد:

إني وجدت فلا تظنوا غيره
هذا التورع عند ذاك الدرهم

فإذا قدرت عليه ثم تركته
فاعلم بأن هناك تقوى المسلم[٣]

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤٣.
(٢) حلية الأولياء ج ٨ ص ١٠.
(٣) معجم الأدباء ج ١ ص ١٠٢.

وكان صالح المري ينشد في مواعظه وقصصه.

فبات يروي أصول الغسيل
فعاش الغسيل ومات الرجل[1]

وهو مأخوذ مما كان يتمثل به مالك بن دينار:

مؤمل دنيا لتبقى له
فمات المؤمل قبل الأمل
يربي فسيلا ويعنى به
فعاش الفسيل ومات الرجل[2]

هذا وقد اتسعت هذه الحركة بشكل أكبر على يد طائفة من الشعراء الزهاد أمثال عبد الله بن المبارك ومساور الوراق ومحمد بن كناسة؛ بحيث أخذوا يقولون المقطوعات الشعرية والقصائد، ثم تسربت هذه الحركة إلى الشعراء غير الزاهدين، بل إلى المارقين والمتزندقين ويمثلهم من الطائفتين أبو نواس وصالح بن عبد القدوس وكلثوم بن عمرو العتابي وغيرهم؛ ممن جعلوا يرددون الموعظة في أشعارهم. واتسعت هذه الحركة على يد أبي العتاهية اتساعاً كبيراً.

وينصب أبو العتاهية نفسه في أشعاره الزهدية واعظاً

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٦٢.
(٢) حلية الأولياء ج ٢ ص ٣٨٤.

للناس يملي عليهم عظاته وتأملاته، وكان الناس من زهاد وغير زهاد يقبلون على شعره. وقد أدرك الشاعر هذا الإقبال وتلك الاستجابة حين طلب إليه الخلفاء أن يقول لهم الشعر في المواعظ وحين كان يلتف حوله العامة ليستمعوا إلى هذا الشعر نفسه بإقبال وشغف. فهذا الخليفة المهدي يحزن على وفاة ابنته، ويعظه أبو العتاهية بقوله:

كأن كل نعيم أنت ذائقه
من لذة العيش يحكى لمعة الآل

لا تلعبن بك الدنيا وأنت ترى
ما شئت من عبر فيها وأمثال

فيقول المهدي له: «أحسنت ويحك! وأصبت ما في نفسي ووعظت»[1].

وكثيراً ما كان الرشيد يطلب إلَيه أن يعظه وكثيراً ما كان يبكي وهو يسمع هذه المواعظ. فيحدثنا الصولي أن محمد بن أبي العتاهية قال: «قال الرشيد لأبي: عظني. فقال له: أخافك. فقال له: أنْتَ آمن، فأنشده:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس
إذا تسترت بالأبواب والحرس

---

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٧٤.

واعلم بأن سهام الموت قاصدة
لكل مدرع منا ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك طريقتها
إن السفينة لا تجري على اليبس

قال: فبكى الرشيد حتى بلّ كمه»[1].

وكان المأمون محباً لأبي العتاهية ميالاً إلى شعره الوعظي وكثيراً ما كان يطلب إليه أن يقول له شيئاً منه. فقد حدث المعلى بن أيوب قال: «دخلت على المأمون يوماً وهو مقبل على شيخ حسن اللحية خضيب، شديد بياض الثياب على رأسه لاطئة فقلت للحسن بن أبي سعيد وهو ابن خالة المعلى بن أيوب، وكان الحسين كاتباً للمأمون على العامة ـ: من هذا؟ فقال: أما تعرفه؟ فقلت: لو عرفته ما سألتك عنه. فقال: هذا أبو العتاهية. فسمعت المأمون يقول له: أنشدني أحسن ما قلت في الموت، فأنشده:

أنساك محياك المماتا
فطلبت في الدنيا الثباتا
أوثقت بالدنيا وأنـ
ـت ترى جماعتها شتاتا

(١) السابق ج ٤ ص ١٠٨.

وعــزمــت مـنــك عــلـى الـحــيــا
ة وطـولــهــا عــزمــا بــتــاتــا
يــا مـــن رأى أبــويـــه فــيـ
ـمــن قــد رأى كــانــا فــمــاتــا
هــل فــيــهــمــا لــك عــبــرة
أم خــلــت أن لــك انــفــلاتــا
ومـــن الـــذي طــلــب الــتــفــلّـ
ـت مــن مــنــيــتــه فــفــاتــا
كــل تــصــبــحــه الــمــنــيّــة
أو تــبــيــتــه بــيــاتــا

قال: فلما نهض تبعته فقبضت عليه في الصحن أو في الدهليز فكتبتها عنه[١].

وهكذا كان أبو العتاهية يلقى التشجيع، وكان شعره في الزهد والمواعظ يلقى الإقبال والإهتمام من العامة والخاصة على حدٍّ سواء.

وأبو العتاهيـة في مواعـظه يعتمد على حـاجة النفس الإنسـانية وعلى مخـاطبتها بهـذين العنصرين المهميـن في حياتها: حقائق الحياة الثابتة التي لا تقبل الشك أو المراء، ثم

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٥٤ ـ ٥٥.

مقررات الدين والأخلاق. فهو يتحدث عن العنصر الأول حول النفوس البشرية وطبائعها من حرص وطمع وحب الحياة والرئاسة والمال وتعلق بالشباب وصبواته وحول تقلب الدهر والزمن بالناس والدول والملوك وحول زوال الحياة وانقضائها بالموت الذي يكمن للإنسان في كل مكان ويتربص له في كل زمان. وأما عن العنصر الثاني فهو يحث على البر والصدق والقناعة والعلم والتوبة والزهد في الدنيا، ويذكر بالموت والقبور والبعث والعقاب والثواب.

وأهم ما يشغل أبا العتاهية في هذه الأمور إنما هو الموت إذ يصوره أبشع صورة ويرسمه دائماً شيئاً مفزعاً مخيفاً. وكأني به خلال كل مواعظه وحديثه عن الأمور السابقة لا يريد شيئاً سوى أن يربط أذهان الناس بالموت ويعلق أخيلتهم بصورته فيخيفهم ويزعجهم، يقول مثلاً:

علمي بأني أذوق الموت نغّص لي
طيب الحياة فما تصفو الحياة ليا
كم من أخ تغتذي دود التراب به
وكان صباً بحلو العيش مغتذيا
يبلى مع الميت ذكر الذاكرين له
من غاب غيبة من لا يرتجي نسبا

إن الـرحيـل عن الـدنيـا ليـزعجني
إن لم يكن رائحاً بي كان مفتـديا[1]

وهو دائم الذكر والتذكير بما يكون بعد الموت من دفن ووحدة في القبر وحثو التراب يقول:

كـأن الأرض قـد طـويت علينـا
وقـد أخـرجـت ممـا في يـديـا
كـأني يـوم يحثـو التـرب قـومي
مهيـلاً لـم أكن فـي النـاس حيـا
كـأن الـقـوم قـد دفـنـوا وولـوا
وكـل غـيـر مـلتـفـت إلـيـا
كـأنـي صـرت مـنـفـرداً وحيـداً
ومـرتـهـنـاً هـنـاك بـمـا لـديـا
كـأن الـبـاكيـات عـليّ يـومـاً
ومـا يُـغـنـي الـبـكـاء عـليّ شيـا
ذكـرت منيـتي فـبـكـيـت نـفـسـي
ألا أسـعـد أخـيّـك أي أخـيـا[2]

وعلى هذا النحو يتناول أبو العتاهية المواعظ ويوجهها

(١) الديوان ص ٣٠١.
(٢) السابق ص ٣٠٠.

إلى الناس إذ يتحدث عن نفسه وكأنه يريد أن يستدرج السامع، ويأخذ بيده برفق ويسير معه متحدثاً عن نفسه أو عن غيره، ثم يلتفت إلى السامع فجأة ويوجه إليه الخطاب وكأنه يزجره ويوبخه على تعلقه بالدنيا ونسيانه الموت وما فيه وما بعده يقول:

الموت حوض لا محالة دونه
مر مذاقته كريه مشربه[1]

ويقول للذين يعكفون على لذّات الدنيا:

ماذا تقول وليس عندك حجة
لو قد أتاك مُهدم اللذات[2]

ويقول في إفناء الموت لكل الناس:

الموت لا والداً يبقي ولا ولداً
ولا صغيراً ولا شيخاً ولا أحدا
للموت فينا سهام غير مخطئة
من فاته اليوم سهم لم يفته غدا[3]

ويقول في تفصيل ما بعد الموت وأهواله:

---

(١) السابق ص ٣٣.
(٢) السابق ص ٤١.
(٣) الديوان ص ٧٥.

فلو كان هـول الموت لا شيء بعـده
لهـان علينـا الأمـر واحتقـر الأمرْ
ولـكـنـه حـشـر ونـشـر وجـنـة
ونـار وما قـد يستطيـل بـه الخبـر[1]

وكما يخوف من الموت وآلامه وسكراته وأهواله، ينتقل مع الميت إلى القبر فيصور وحدته ووحشته وترابه، يقول:

لأعـجبـن وأنى يـنـقـضـي عـجبـي
النـاس في غفلة والمـوت في سنن
وظـاعن من بيـاض الـريْط كسـوتـه
مـطيـب للمنـايـا غيـر مـدهـن
غـادرتـه بعـد تشييعيـه منجـدلا
في قـرب دار وفي بعـد عن الـوطن
لا يستـطيـع انتفـاضـاً في محلتـه
من القبيـح ولا يـزداد في الحسن[2]

ويصور قبور وجهاء الدنيا طلاب ملاذها. يقول:

زرت قـبـور أهـل الـمـلك فـي
الـدنيـا وأهـل الـرتـع في الشهـوات

---

(١) السابق ص ١١١ .
(٢) السابق ص ٢٧٨ .

كانوا ملوك مآكل ومشارب
ومـلابس وروائح عطرات
فإذا بأجساد عرين من الكسا
وبأوجه في الترب منعفرات
لم تبق منها الأرض غير جماجم
بيض تنلوح وأعظم نخرات
إن المقابر ما علمت لمنظر
يفني الشجى ويهيج العبرات[1]

من أجل الموت وأهواله والقبور ووحشتها وما بعد الموت من عذاب وعقاب يدعو أبو العتاهية إلى الزهد والتقوى عن طريق العفة والقناعة وعدم الحرص على المال:

يا جامع المال منذ كان، غدا
يأتي على ما جمعته الحرب[2]

ويقول:

ولا تفرح بمال تقتنيه
فإنك فيه معكوس المراد[3]

---

(١) السابق ص ٤٢.
(٢) الديوان-ص ١٧.
(٣) السابق ص ٨٠.

ويقول في القناعة:

وإذا ما الفقير قنعه اللّـ
ـه فسيان بؤسه والنعيم
إن في الصبر والقنوع غنى الدهـ
ـر وحرص الحريص فقر مقيم
إنما الناس كالبهائم في الرز
ق سواء جهولهم والعليم
ليس حزم الفتى يجرّ له الرز
ق ولا عاجزاً يعد العديم[1]

وقد رأينا كيف يعالج أبو العتاهية مواعظه فيستمدها من القيم الثابتة في الحياة والدين والأخلاق، ولذلك لا نعجب إذا رأينا تعارضاً بين سلوكه في البخل والحرص على جمع المال وحبه وبين مواعظه، فالمواعظ عنده في أغلب الأحيان مصنوعة تدل على مهارة وحذق في صناعة الشعر وبراعة صياغته وحسن السبك والتصوير، وبذلك لا تدل على انطباعاته الخاصة أو مذهبه في وضوح؛ وغاية ما فيها أنها تدل على ثقافته وعلى مهارته، وعلى استجابة المجتمع لها وإن كانت لا تخلو من

(١) السابق ص ٢٣٧.

روحه المانوية الداعية إلى الرضا والقناعة والخمول والكسل والتشاؤم.

٨ ـ شعر الحكمة:

والمراد بالحكمة النظرات الصائبة في الكون والحياة والناس والدين والأخلاق وتكون عادة متأثرة بانطباعات الإنسان التي تتكون عنده بطول النظر في هذه الأمور بحيث يكوّن لنفسه فلسفة خاصة فيها. بيد أن أبا العتاهية ليس صاحب مذهب فلسفي ولكنه صاحب خطرات فلسفية حكمية لها من انطباعاته روح التشاؤم في الزهد في كثير من الأحيان. وعنصر الحكمة من العناصر المهمة التي يقوى بها شعره في الزهد والمواعظ إذ يسوق الحكم في صورة تقريرية فيها توكيد وقوة ويعتمد فيها على حقائق الحياة الثابتة في طبائع الناس والأيام ومقررات الدين والأخلاق. فمن خطراته التي يجريها مجرى الجكمة في طبائع الناس وأخلاقهم قوله:

ما من صديق وإن تمت مودته
يوماً بأبلغ في الحاجات من طبق
إذا تعمم بالمنديل منطلقاً
لم تخش سوءة بواب ولا غلق
لا تكذبن فإن الناس مذ خلقوا
عن رغبة يعظمون الناس أو فرق

أما الفعال ففوق النجم مطلعه
والقول يوجد مطروحاً على الطرق[1]

وقوله في شرور الناس وشهواتهم:
في الناس من تسهل المطالب أحيا
ناً عليه وربّما صعبت
وشرة الناس ربما جمحت
وشهوة النفس ربما غلبت[2]

وقوله كذلك في اختلاف أحوالهم ومذاهبهم:
كل له سعيه والسعي مختلف
وكل نفس لها في سعيها شاء[3]

والصورة في الحكمة تتمّ عنده، الصورة الوعظية من حيث يريد أن يرسم في حكمه الطريق للناس في سلوكهم وأخلاقهم، يقول:
رحم الله امرءاً أنصف من
نفسه إذ قال خيراً أو سكت[4]

---

(١) الديوان ص ٣٨٣.
(٢) السابق ص ٣٨.
(٣) السابق ص ٢.

ويقول فيما ينبغي أن يكون عليه مذهب الناس.

ما المرء إلّا إذا بدا الحسن
الظاهر منه وطيب طعمته
ما المرء إلّا بحسن مذهبه
سراً وجهراً وعدل قسمته[1]

ويقول في العدل والحق وأثر الغنى في الناس:

يحب السعيد العدل عند احتجابه
ويبغي الشقي البغى والبغي يصرع
ولم أر مثل الحق أقوى لحجة
يد الحق بين العلم والجهل تقرع
وذو الفضل لا يهتز إن هزه الغنى
لفخر ولا إن عضه الدهر يفزع[2]

ويقول في القول والفعل:

ولخير قول المرء أصدقه
ولخير فعل المرء أنفعه
وجميع ما للمرء من عمل
فالمرء يحصده ويزرعه[3]

(١) الديوان ص ٥٩.
(٢) السابق ص ١٤٧.
(٣) السابق ص ١٦٢.

ويقول في معاملة الناس وحسن سياستهم والتحلي معهم بمكارم الخلق:

من عــرف النــاس فــي تصــرفـهم
لــم يتتبــع مـن صــاحــب زلــلا

إن أنــت كــافيـت من أســاء فـقــد
صــرت إلى مثـل ســوء مــا فعــلا

إن مـعــالي الأمــور تـمسـي لـمـن
يـصبــر عـنـد المكــروه إن نــزلا

ذو الـحـلم فـي جـنــة تــرد سهــا
م الجهـل عنه إن جــاهـل جهــلا

يـلـتـمس الــعــذر لـلصــديــق وإن
أتــاه يــومــاً بــعــذره قــبــلا

خفّـف على كــل من صحبت وقــد
كــان لـحمــل الـثقيــل محـتمــلا

كم قـد رأينـا امـرءاً من الخيـر عُــرْ
يَــانــاً وإن كــان يـلبس الحـللا[1]

الناس سواسية، من الأرض وإليها كلهم لآدم وآدم من تراب كما يقول:

---

(١) الديوان ص ٣٨١.

أيـن الـمـلوك وأيـن جُـنْـدهـم
صـاروا مـصـيـراً أنـت صـائـره
فـسبـيلنـا فـي الـمـوت مـشـتـرك
تـتـلو أصـاغـره أكـابـره[1]

ولأبي العتاهية نظرات في العلم ومصادره وجدواه تجري في أسلوب حكمي ولا تعدو الصواب. يقول في ادعاء العلم والرجم بالغيب وتفضيل الصمت:

أشـد الـنـاس لـلعـلم ادعـاء
أقـلهـم بـمـا هـو فـيـه عـلـمـاً
أرى الإنسـان منقـوصـاً ضعـيفـاً
ومـا يـألـو لـعلم الـغيـب رجـمـا
وفي الصمت المبلغ عنـك حكمـا
كمـا أن الكـلام يـكـون حكـمـا
إذا لـم تحـتـرس مـن كـل طـيش
أسـأت إجـابـة وأسـأت فهمـا[2]

أما أدوات العلم المعروفة فهي كما يذكر في شعره الحواس والعقل يقول:

---

(١) السابق ص ١٢٢.
(٢) الديوان ص ٢٤٩.

الباطل المحض معروف برؤيته
والحق يعرف بالأمثال والعبر
والغيب يثبته في العقل شاهده
والعلم أجمع من عين ومن أثر[٢]

أما المناهج التي نتهجها طلاب العلم فتنحصر في: التعليل المنطقي أو القياس، والفَحص والاختيار وهو العيار والتلقي بالسماع. يقول:

وإنما العلم من قياس
ومن عيار ومن سماع[٢]

أما غاية العلم فهي الانتفاع به ونفع الناس بحيث يطابع القول العمل ثم معرفة النفس بحيث يسعى الإنسان في صلاحها وسلامتها. يقول:

وكفى بعلمك في الأمو
ر إن انتفعت بما علمتا[٣]

ويقول:

يا ذا الذي يقرأ في كتبه
ما أمر الله ولا يعمل

(١) السابق ص ١١٥.
(٢) السابق ص ١٥٨.
(٣) السابق ص ٤٤.

قد بين الرحمن مقت الذي
يأمر بالحق ولا يفعل
من كان لا تشبه أفعاله
أقواله فصمته أجمل
والراكب الذنب على جهله
أعذر من كان لا يجهل(1)

ومن حكمه التي تشيد بفضل العلم قوله:

لا بأس بالمرء ما صحت سريرته
ما الناس إلّا بأهل العلم والناس(2)

وقوله:

ولم أر مثل الحق أقوى لحجة
يد الحق بين العلم والجهل تقرع(3)

وقوله:

من صدق الله علا
ومن طلب العلم علم(4)

---

(1) الديوان ص ١٩٨ .
(2) الديوان ص ١٣٠ .
(3) السابق ص ١٤٧ .
(4) السابق ص ٢٤٣ .

بيد أن حكم أبي العتاهية التي تفيض بالتشاؤم هي تلك التي تتصل بفلسفته في الموت والدنيا أو نظرته إليها، فهو لا يقع إلا على الصور القائمة في الحياة فتنطبع عليها ظلال التشاؤم ومسحات الخوف وألوان اليأس والسلبية. يقول مثلاً:

وكل سلامة تعد المنايا
وكل عمارة تعد الخرابا
وكل مملك سيصير يوماً
وما ملكت يداه معاً ترابا
أبت طرفات كل قرير عين
بها إلاّ اضطراباً وانقلابا
كأن محاسن الدنيا سراب
وأي يد تناولت السرابا
وإن يك منية عجلت بشيء
تسر به فإن لها ذهابا
ألم تر أن غدوة كل يوم
تزيدك من منيتك اقترابا
وحق لموقن بالموت أن لا
يسوغه الطعام ولا الشرابا[1]

---

(١) الديوان ص ١٣ ـ ١٤.

كما يقول:

لـو تـرى الـدنيـا بعيني بصيـر
إنمـا الـدنيـا تحـاكي السـرابـا
إنـمـا الـدنـيـا بـلاءٌ وكـدٌّ
واكـتئـاب قـد يسـوق اكـتئـابـا

إلى آخر هذه القصيدة التي تفيض بالتشاؤم في كل بيت من أبياتها ويطول بنا الأمر لو أردنا إلى الاستشهاد على هذه الروح التي تسود فلسفته وحكمته والتي تشع ظلالاً قاتمة وألواناً داكنة في عامة شعره الزهدي.

وهكـذا يقفنا شعـر أبي العتاهيـة الديني في الـزهـد والموعظة والحكمة على كثير من الحقائق التي تصور الحياة الإجتماعية في عصره واستعدادها لتقبل هذا الشعر والتي تصور حياة الشاعر نفسه من النواحي النفسية والعقلية، بما كان فيها من تحول نفسي بين حياة المجون والعبث وبين إرادة الزهد التي أفضت به أخيراً إلى اعتزال الناس على نحو شاذ، وبما كان يدور في عقله من أفكار وآراء عن الحياة والموت والدنيا والأخلاق وسوى ذلك.

الفصل السادس: خصائصه الفنّية

١ ـ الصياغة:

إن البساطة والسهولة هما أول ما يطالعنا من سمات فنّيّة، تظهر لأول وهلة لمن ينظر في أشعار أبي العتاهية: بساطة وسهولة في كل شيء في اللفظ: تناوله واستعماله، في العبارة: صياغتها وبنائها؛ في الأفكار والمعاني: استنباطها وخلقها وإخراجها؛ حتى معانيه الفلسفية التي تناولها في شعره بسيطة؛ بعيدة عن التعقيد والتركيب والالتواء. وهذه السمة الفنية عامة في كل الأغراض التي طرقها وأنشأ فيها شعراً.

وهي وليدة طبعه وبيئته السهلة، التي أضفت عليها الحضارة الجديدة كثيراً من ألوان البساطة والترف، والبعد عن جفاف البدو وخشونة الصحراء وغلظ الحياة؛ ومن ثقافته الشعرية التي اعتمدت في الأغلب على شعر المحدثين الذي كان يغنّى في الكوفة على أيامه؛ ثم من الموضوعات التي أنشأ فيها معظم شعره، ومن الغرض الذي كان يهدف إليه وهو السيرورة والشعبية لشعره تلبية لحاجة الناس والعصر.

وخير ما يـدلنا على البسـاطة والشعبيـة في شعر أبي العتاهية شهادة الأرستقراطيين أنفسهم حينما يقررون أنه أقدر شاعر شعبي يستطيع أن ينفذ إلى قلوب الطبقات المتواضعة وعقولهم.

روى الصولي: «كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين في الزلالات إذا ركبها؛ وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال: قولوا لمن معنا من الشعراء يعملـوا لهؤلاء شعراً يغنون فيه. فقيل له: ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية»[1]. فمثل هذه الشهادة تقرر في غير لبس أو التواء خصائص ثلاثاً تميز شعر أبي العتاهية هي: السهولة التي تحبب إلى هؤلاء الملاحين الشعر وترغبهم فيه، والشعبية بحيث يعتبر أقدر شاعر على الوصول إلى نفوس العامة، ثم الموسيقية التي توفّر له الإيقاع الجميل الـذي يتلاءم مـع الغناء وينسجم مـع أدائه وتوقيعه.

والحقيقة أن تلك السمات الفنية كانت تعتمد على طبع شاعري وتنبثق عن فطرة موسيقية تتصف بالفيض والسلاسة والانطلاق.. ولا نعدو الحقيقة إذ قلنا إن أبا العتاهية يعتبر في هذا العصر في مقدمة نفر قليلين من الشعراء صدروا عن ذات

---

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ١٠٤.

أنفسهم، لم يعقهم تكلّف ولم يتعثروا في مظاهر صناعية أو زخرفية، ولم تتحكم في شعرهم بواعث خارجية لتضفي عليه شيئاً من التعقيد والإلتواء وإنما كان المعول دائماً على الينبوع الشعري المنبثق من الداخل ينساب في في سهولة ويسر، أينما كان الشاعر وفي أي وقت يكون ومن هنا نستطيع أن نفهم لِمَ كان جل شعر أبي العتاهية في الغزل والزهد والموعظة وأن نفهم كيف قال في الزهد وحده عشرين ألف أو ستة عشر ألف بيت[1]. فشاعريةب أبي العتاهية عين ثرة لا تستعصي عليه ولا تتباطأ.

ويقول روح بن الفرج الحرمازي: «جلست إلى أبي العتاهية فسمعته يقول: لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت»[2].

ويؤكد هذا الطبع الفياض عنده الذي لا يقع على السهل البسيط من اللفظ ومن الصياغة ما يحدثنا به عبد الله بن الحسن إذ يقول: «جاءني أبو العتاهية وأنا في الديوان فجلس إليّ فقلت: يا أبا إسحاق أما يصعب عليك شيء من الألفاظ فتحتاج فيه إلى استعمال الغريب كما يحتاج إليه سائر من يقول

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ص ٦٣.
(٢) أغاني بيروت ج ٤ ص ١٥.

الشعر أو إلى ألفاظ مستكرهة قال: لا فقلت له: إني لأحسب ذلك من كثرة ركوبك القوافي السهلة. قال: فاعرض عليّ ما شئت من القوافي الصعبة. فقلت: قل أبياتاً على مثل البلاغ، فقال من ساعته:

أي عـيش يـكـون أبـلغ مـن عـيـ
ش كفـاف قـوت بقـدر البـلاغِ
صـاحـب البـغي لـيس يسـلم منـه
وعـلى نفسـه بـغـى كـل بـاغـي
غـبـنـتـنـي الأيـام عـقـلي ومـالـي
وشـبـابـي وصـحـتـي وفـراغـي[1]

وقال ابن الأعرابي في معرض الرد على بعض من حكم على شعر أبي العتاهية بالضعف: «الضعيف والله عقلك لا شعر أبي العتاهية ألأبي العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر! فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت منه وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر»[2].

وهكذا نجد أن ذوي البصر بالشعر في عصره، قد بهرتهم قريحته السيالة وشاعريته المتدفقة عن طبع أصيل لا أثر فيه للتقليد أو الإكراه.

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٤٢.
(٢) السابق ج ٤ ص ٧٠.

والواقع أن من السمات العامة في شعر أبي العتاهية أنه يكاد يخلو من الجزالة اللفظية ولا شك أن نشأته على شعر المحدثين الذي كان يدور على الألسن في الكوفة وقلّة نظره في شعر القدماء؛ كانت من أهم الأسباب التي جعلت شعره يخلو من اللفظ الجزل والصياغة الضخمة الفخمة. روى أبو الفرج عن أبي حاتم قال: «قدم علينا أبو العتاهية في خلافة المأمون، فصار إليه أصحابنا فاستنشدوه فكان أول ما أنشدهم:

ألم ترَ رَيْبَ الدهر في كل ساعة
لـه عارضٌ فيه المنية تلمع

أيا باني الدنيا لغيرك تبتني
ويا جامع الدنيا لغيرك تجمع

تبارك من لا يملك الملك غيره
متى تنقضي حاجات من ليس يشبع

وأيّ امرىء في غاية ليس نفسه
إلى غاية أخرى سواها تطلع

قال: وكان أصحابنا يقولون: لو أن طُبعَ أبي العتاهية بجزالةِ لفظ لكان أشعر الناس»[1].

ويتصل بنقص الجزالة في شعره سمة أخرى فيه هي

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٦٤.

الليونة. وربما كانت هذه الليونة تنسجم مع شعره في الغزل وتشبيبه بمحبوبته وإذلالها إياه بحيث يصدق فيه قول ابن المعتز إن «غزله ليّن جداً مشاكلٌ لكلام النساء موافق لطباعهن»[1].

ولكننا نجد هذه الليونة كذلك في أغراض أخرى غير الغزل نجدها في شعره الزهدي ومن خير ما يمثل هذه السمة عنده قوله:

يـا للمنـايـا ويـا لـلبيـن والحـين
كـل اجتمـاع من الـدنيـا إلى بين
يبلي الـزمـان حـديثاً بعـد بهجتـه
والـدهـر يقـطع مـا بين القـريبين[2]

وقوله:

أرقيـك أرقيـك بـاسم الله أرقيكـا
من بخـل نفسـك علّ الله يشفيهـا
مـا سلم كفـك إلّا من ينـاولـهـا
ولا عـدوك إلّا مـن يـرجيـهـا[3]

والقصيدة التي مطلعها:

---

(١) الطبقات ص ٢٨.
(٢) الديوان ص ٢٧٢.
(٣) الديوان ص ٢٨٩.

إيــهــا إلـيــك أخـــي إيــهــا
تـبـكـي وقــد أحــدثــت فـيـهــا[1]

والقصيدة التي مطلعها:

فيــا من بــات ينمــو بــالخــطايــا
وعــيــن الله ســاهــرة تــراه[2]

وأظهر ما تكون هذه السمة حيث نجدها في القصيدة التي مطلعها:

أيــن الــقــرون الــمــاضــيــة
تــركــوا الــمــنــازل خــالــيــة[3]

حيث تتمثل هذه السمة في الألفاظ التي ترق رقة شديدة، وحيث تظهر واضحة في طريقة النظم والبناء وفي استعماله بكثرة للنداء الذي يصل أحياناً إلى درجة الندب وكأنه يصرخ ويولول وفي كثرة نواحه وتحسره على ما فات من أيام الشباب وما قدم فيه من ذنوب وجناه من آثام وفي التصغير الذي يستخدمه وكأنه لون من التدليل الذي تستخدمه النساء في أيامنا في نــداء بنــاتهن وفي تكــراره للفــظة بعينهــا لا داعي

---

(١) السابق ص ٢٩١.
(٢) السابق ص ٢٩٧.
(٣) الديوان ص ٣٠٧.

لتكرارها وفي تلك الألفاظ التي لا تعطي مدلولاً خاصاً سوى إحـداث صوت يثيـر الشجى والحسرة ويتمم تلك الليـونـة وينسجم معها؛ ثم في هذه القوافي التي تفيض ليونة بما فيها من تنهد حزين وأنين وصدى رنين وهذا طبعاً كله عائد إلى نشأته الحضرية وإلى إحساسه بالضعف وهوان المكانة والنشأة وإلى ملازمته في أول حياته لأولئك المخنثين وإلى اتصاله بمعشوقته سعدى النائحة وقوله الشعر من أجلها لتنوح به ثم إلى طول ممارسته لفن الغزل. ومهما يكن فإن هذه السمة نفسها لا تعيب شعره الذي تبدو فيه سمات أخرى واضحة وقوية من براعة في الصياغة ومتانة في البناء ووضوح في المعاني بل إنها اكسبته رقة وسيرورة وشعبية.

وقبل أن ننهي الحديث عن قضية الصياغة لا بد لنا من وقفة قصيرة عند موقفه من بناء القصيدة ونظامها، حيث نراه يخرج على تقليد قوي من التقاليد التي انحدرت مع القصيدة العربية حينما يسخر من المقدمة الطللية أو الغزلية ويخرج بها إلى الخمر والمجون ولما نازعه أبو نواس هذا الاتجاه ترك له المقدمة الخمرية المجونية إلى المقدمة الزهدية وبدأنا منذ ذلك الحين نشاهد قصائد في المديح وغيره تستفتح بالوعظ والزجر والحكمة والتزهيد.

وعلى هذا الأساس تغير نظام القصيدة بعد أن أصبحت

حاجة العصر ترفض المقدمات الطويلة للقصائد كما أصبحت المعاني من أهم العناصر التي ينظر إليها.

٢ ـ الموسيقى:

ولم تقف سخرية أبي العتاهية عند حد المقدمة، وإنما عمدت إلى الأعاريض والأوزان التي يصوغ فيها العرب شعرهم فكسر الأسوار والأُطر التي تحيط بها عندما صاغ شعراً في قوالب شعرية جديدة لم يطرقها الشعراء قبله.

يقول أبو الفرج: «وله أوزان طريفة قالها، مما لم يتقدمه الأوائل فيها»[١]. ويروي الصولي أن أبا العتاهية: «سُئِلَ: هل تعرف العروض؟ فقال: أنا أكبر من العروض، وله أوزان لا تدخل في العروض.

هم القاضي بيت يطرب
قال القاضي لما عوتب
ما في الدنيا إلّا مذنب
هذا عذر القاضي واقلب[٢]

وقد روى المسعودي هذين البيتين ووزنهما «فعلن» أربع مرات قال: «أبو العتاهية خرج فيهما عن العروض وقد قال

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ٤.
(٢) السابق ج ٤ ص ١٥.

قوم: إن العرب لم تقل على وزن هذا الشعر ولا ذكره الخليل ولا غيره من العروضيين»[1].

ويقول ابن قتيبة: «وكان لسرعته وسهولة الشعر عليه ربما قال شعراً موزوناً يخرج به عن أعاريض الشعر وأوزان العرب؛ وقعد يوماً عند قصار فسمع صوت المدقة فحكى ذلك في ألفاظ شعره وهو عدة أبيات منها:

للمنون دائرا ت يدرن صرفها
هن ينتقيننا واحداً فواحدا[2]

ومن الأوزان التي ابتكرها أيضاً، ما صاغ فيه قوله:

عتب ما للخيال خبريني ومالي
لا أراه أتاني زائراً منذ ليالي
لو رآني صديقي رقّ لي أو رثى لي
أو يراني عدوي لان من سوء حالي[3]

وهكذا امتدت الثورة عند أبي العتاهية إلى قوالب العرب الشعرية فكسر القيود المضروبة حولها، وأطلق نفسه على سجيتها لتخلق وتبتكر الأوزان التي تليق بما يقول من الشعر غير عابىء بالموروثات والتقاليد الشعرية.

---

(١) الديوان ص ٣٠١.

(٢) الشعر والشعراء ص ٤٩٧ وطبقات ابن المعتز ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٣) الشعر والشعراء ٤٩٨.

وما مزدوجته المعروفة بذات الأمثال إلّا ضربٌ من الثورة على تلك التقاليد إن صحّ ما يقال من أن أول من كسر قيود القافية في القصيدة العربية هو أبو العتاهية وبشار[1].

وكأني بأبي العتاهية يريد أن يطلق لنفسه الحرية في كل ما يتصل بقول الشعر، منطلقاً من كل ما وضع للشعر من قواعد وأصول وقوانين؛ إذ لم يترك مجالاً من مجالات هذا الإنطلاق وذاك التحرر إلّا طرقه ودار في حلبته بقد ما أسعفته قدرته على الخلق والإبتكار والتجديد وبقدر ما سمحت له الظروف والملابسات ولننظر إلى قوله:

يا ذا الذي في الحب يلحى أما
والله لو كلّفت منه كما
كلفت من حب رخيم لما
لمت على الحب، فذرني وما
ألقى، فإني لست أدري بما
بكيت إلّا أنني بينما
أنا بباب القصر - في بعض ما
أطوف في قصرهم - إذ رمى
قلبي غزال بسهام، فما
أخطا بها قلبي، ولكنما

(1) أنظر أهدى سبيل ص ١٣٦ ط. الحلبي ١٩٤٥ م.

سهماه عينان له، كلما
أراد قتلي بهما سلما

إن فيها ثورة على القافية التقليدية، فضلاً عن ثورة أخرى على ما أثر من أن البيت الواحد هو وحدة الشعر. . فنحن نرى هنا أن وحدة الشعر لم تعد بيتاً واحداً وإنما هي المقطوعة بكاملها؛ بحيث لا يمكن والحالة هذه أن تقطع شطراً عما بعده أو بيتاً عما يليه لأن الأبيات متصلة فيها اتصالاً وثيقاً من أول كلمة إلى آخر كلمة.

وإذا نظرنا نظرة عامة إلى الأوزان والقوافي التي كان يستخدمها أبو العتاهية في صياغة شعره وجدنا أنها تتمتع بموسيقى داخلية نابعة من نفس الشاعر فضلاً عن موسيقى الشعر الظاهرة التي تبدو في الأوزان؛ وليس من شك في أن أبا العتاهية كان مرهف الإحساس على درجة عالية بالنسبة للموسيقى، بحيث كان يحس بموسيقى النظم في داخل نفسه حينما يتحدث فيكون كلامه شعراً. . ومثل هذه القدرة على الإحساس بالموسيقى تجعل أبا العتاهية طرازاً خاصاً من الشعراء. فالشاعر العادي لا يحس بموسيقى إيقاع اللفظ إلّا حينما يكون في حالة التهيؤ والاستعداد لقول الشعر؛ قد يكون ذلك كثيراً إذا كان الشاعر مشتغلاً بالشعر إلى درجة الهوس، أما أن يكون الشاعر في حالة تهيؤ واستعداد دائم لقول الشعر

بحيث يستطيع أن يفرز هذا الشعر بحالة مستمرة الأمر الذي يجعله يقول: لو أردت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت والذي يجعل غيره يقول: إنه يتناول الشعر من كمه فذلك ما يدفعنا إلى القول بأن الكلمات والعبارات كانت في حالة انتظام موسيقي وإيقاع شعري دائبين داخل نفس أبي العتاهية يخرج منها شعره متى شاء وأينما كان.

تلك الظاهرة أو القدرة الموسيقية الخاصة هي التي أمكنته من أن يكون مرهف الأذن شديد الحساسية بالنسبة للإيقاع الموسيقي أيّاً كان مصدره بحيث تستجيب إليه نفسه وأذنه في سرعة خاطفة بل إن سرعة هذه الاستجابة تتصل بالبناء الشعري في داخله بحيث يفرز لتوه شعراً على طرقات مدقة القصار على نحو ما رأينا منذ قليل.

وقد ظلّ شغفه الشديد بالموسيقى والغناء مالكاً عليه نفسه حتى وهو على فراش الموت؛ فقد روى اسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه: «قيل لأبي العتاهية عند الموت: ما تشتهي؟ فقال: أشتهي أن يجيء مخارق فيضع فمه على أذني ثم يغنيني:

سيُعْرض عن ذكري وتُنسى مودتي
ويحدث بعدي للخليل خليل

إذا ما انقضت عني من الدهر مُدتي
فــإن غــنــاء الــبــاكــيــات قليــل[1]

فالإيقاع الموسيقي شيء يجري في طبع أبو العتاهية وفي دمه لا يفارقه إلّا بمفارقة الروح . .

ويطول بنا الأمر لو أردنا الاستشهاد على هذه الخاصة الموسيقية في شعره وربما يكفي أن نعيد النظر في شعره الغزلي الذي أوردناه في الفصل السابق وأن نقرأ في ديوانه بعض الأبيات هنا وهناك . . ولعل في هذه الأبيات أنموذجاً لمن نحن بسبيله حيث يقول :

الــدهــر ذو دول والمــوت ذو علل
والمــرء ذو أمــل والنــاس أشبــاه
ولــم تــزل عــبــر فــيــهــن معــتــبــر
يــجــري بــهــا قــدر والله أجــراه
يبكي ويضحــك ذو نفس مصــرفــة
والله أضــحــكــه والله أبــكــاه
والمبتلي فهــو المهجــور جــانبــه
والنــاس حيث يكــون المــال والجــاه
يــا بــائــع الــدين بــالــدنيــا وبــاطلهــا
تــرضى بــدينــك شيئــاً ليس يســواه

---

(١) أغاني بيروت ج ٤ ص ١١١ .

حتى متى أنت في لهو وفي لعب
والموت نحوك يهوي فاغراً فاه
ما كل ما يتمنى المرء يدركه
رب امرىءٍ حتفه فيما تمناه

إلى قوله:

ما أقرب الموت في الدنيا وأبعده
وما أمرّ جنى الدنيا وأحلاه
وكل ذي أجل يوماً سيبلغه
وكل ذي عمل يوماً سيلقاه[1]

ولعل هذه الأبيات تتمثل فيها جل خصائص شعره الفنّيّة، إذ نرى فيها خواصه في اختيار اللفظ وترتيبه في بساطة وسهولة، وفي غير جهد أو تكلّف، واللفظة ذاتها سهلة رقيقة، تقوم في مكانها من البناء في غير نبوٍّ ولا غرابة لا إكراه في اشتقاقها ولا تعقيد ولا تنافر في بناء أصواتها وحروفها بل إن ذوقه الموسيقي وطبعه البسيط يحددان له مجال هذا البناء بحيث تقع الأصوات من الأذن موقعاً مستساغاً مقبولاً حسن الأثر والجرس. وصياغة العبارة فيها سلاسة وطواعية وانقياد تجري الكلمات فيها مجرى سهلاً بسيطاً بحيث لا نحس أي

---

(١) الديوان ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

لون من ألوان التنافر بينها أو أية غرابة في نظمها وتنسيقها.

٣ ـ خصائص خطابية وبلاغية:

والوضوح من أظهر السمات الخطابية التي تطالعنا بصفة عامة في شعر أبي العتاهية ومن هنا كان إقبال العامة والخاصة على شعره، ومن هنا أيضاً كان يستطيع أن يجعل من نفسه واعظاً للناس ناصحاً لهم، وقد شاهدنا كيف كان يجلس منهم أو يقف موقف الخطيب وكيف كانوا يلتفون حوله منصتين لشعره الوعظي في مسجد أو غيره. ولا شك أن الوضوح في المعاني التي كان يتناولها وفي الألفاظ التي كان يستخدمها وفي التعبيرات التي كان ينظم فيه شعره، كان من أقوى الدوافع التي تحث الناس وخاصة العامة منهم إلى الإقبال عليه وعلى شعره.

والمنطق الذي كان يعتمد عليه في شعره الزهدي منطق بسيط في قضاياه وفي علله وأحكامه لأنه مستمد كما رأينا من واقع الحياة التي تحيط بالناس ومن واقع الأحداث التي تسير بهم ويرونها دائماً ومن الحقائق الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل مهما تغير الزمان ومهما تبدل المكان وهي التي تتصل بتغير الأيام وتنقل صروف الزمان بين الفقر والغنى وبين الجاه والسلطان وزوالهما وبين الشباب والشيب وغير ذلك من مظاهر

الحياة كما تتصل بالموت وهو الحقيقة القوية التي يشاهدها الناس ويدركونها في كل يوم. ولذلك هو يتخذ من الموت الحجة القوية التي يبني عليها أحكامه في الزهد ويتوسل إلى هذه الأحكام بمقررات الأديان وقضايا الأخلاق متناولاً ذلك كله في فلسفة بسيطة ومنطق بسيط بحيث لا يخفى منه شيء على العامة، فيصبه في قوالب الأوزان ويضفي علية من شاعريته وبراعة صياغته وطبعه الموسيقي، ما يكسبه طلاوة يحسن وقعها على الأذن ويبقى ذكرها عالقاً بالذهن.

وتطالعنا من هذه الخصائص الخطابية أيضاً في شعره سمات أخرى لفظية من أهمها وأظهرها التكرار. وأبو العتاهية مولع بالتكرار في شعره الزهدي لأنه يوفر له خاصة مهمة من خصائص الخطابة الوعظية بحيث نراه وكأنه يريد أن يقرع الأذن بتكرار لفظة بعينها من أجل تنبيه السامع أو زجره أو إبعاده عن الصدوف أو الملال ولننظر مثلاً إلى قوله:

أي يوم يوم السباق وإذ أنـ
ـت تنادي فما تجيب المنادي

أي يوم يوم الفراق وإذ نفـ
ـسك ترقى عن الحشا والفؤاد

أي يوم يوم الفراق وإذ أنـ
ـت من النزع في أشد الجهاد

أي يــوم يــوم الصــراخ وإذ يلطمـ
ـن حــر الــوجــوه والآســاد
أي يــوم نــسـيـت يــوم الــتــلاقــي
أي يــوم نــسـيـت يــوم الــمــعــاد
أي يــوم يــوم الــوقــوف إلـى اللّـ
ـه ويــوم الــحــســاب والإشــهــاد
أي يــوم يــوم الخــلاص من النــا
ر وهــول الــعــذاب والأصــفــاد
كم وكم في القبــور من أهــل ملك
كــم وكــم فــي الـقـبــور مــن قــواد
كم وكم في القبــور من أهـل دنيــا
كــم وكم فــي الـقـبــور مــن زهــاد
لـو بـذلت النصـح الضحيـح لنفسي
لم تــذق مقـلتــاي طعـم الــرقــاد
لـو بـذلت النصـح الصحيـح لنفسي
همت أخـرى الزمـان في كل واد[1]

وغير هذا كثير مما نجده في ديوانه، ويصوره لنا واقفاً يخطب في الناس ويعظهم ويزجرهم ويذكرهم بالموت والقبور

(١) الديوان ص ٧٦ ـ ٧٧.

وما بعد الموت والقبور وكأنه يمسك في يده بعصاً يدق بها الأرض بعنف عند غاية كل بيت وقبل استهلال البيت الذي يليه.

وأبو العتاهية في هذه السبيل، يمضي في استخدام الصيغ الإنشائية من نداء وتعجّب واستفهام وأمر ونهي، لأنها الأساليب التي تثير الإنتباه وتجذب السمع، وهو حينما ينتقل بين هذه الأساليب ويكثر من استعمالها إنما ينزع إلى أن ينقل السامع معه من صيغة إلى صيغة وكأنه ينقله من حال إلى حال، حتى لا يتسرب السأم إلى نفسه وحتى يتابع لفته إلى خطابته أو شعره الخطابي إن صح هذا التعبير ولننظر إلى قوله:

أعمد لنفسك واذكر ساعة الأجل
ولا تغرن في دنياك بالأمل
سابق حتوف الردى واعمل على مهل
ما دمت في هذه الدنيا على مهل
واعلم بأنك مسؤول ومفتحص
عما عملت ومعروض على العمل
لا تلعبن بك الدنيا وزخرفها
فإنها قرنت في الظل بالمثل
ما أقرب الموت من أهل الحياة وما
أحجى اللبيب بحسن القول والعمل

والمـوت مـدرجـة للنـاس كـلهم
قصـداً إليـه بكـره مجمـع السبـل
مـا أحسن الدين والـدنيا إذا اجتمعـا
وأقبـح الكفر والإفـلاس بالـرجـل[1]

حيث ينتقل بالسامع من صيغ للأمر إلى صيغة النهي إلى النفي إلى التعجب إلى الإثبـات إلى التعجب مرة أخـرى، استدراجاً لانتباهه ودفعاً للسآمة أن تصيبه.

وليس من شك في أن أساليب الأمر والنهي والنداء من ألزم الوسائل في توفير الخصائص الخطابية، الأمر الذي لا تفتقده في شعر أبي العتاهية الزهدي لأنـه من أهم عناصر أسلوبه وسماته وأهم أدواته التي يستخدمها في مخاطبة الناس ووعظهم، فنجد كثيراً مثل قوله:

اتـق الله بـحـمـدك
قـاصـد أو بـعض جـهـدك
أيـهـا الـعـبـد إلـى كـم
تـشـتـري الـغـي بـرشـدك
كـم وكـم عـاهـدت مـولا
ك فـلـم تـوف بـعـهـدك

(١) الديوان ص ٢٠٥.

اعطِ مولاك لما تطلب
من طاعة ربك[1]

وقوله:

أكره لنفسك ما لغيرك تكره
وافعل بنفسك فعل من يتنزه

وادفع بصمتك عنك خاطرة الخنا
حذر الجواب فإنه بك أشبه

وكل السفيه إلى السفاهة وانتصف
بالحلم أو بالصمت ممن يسفه

ودع الفكاهة بالمزاح فإنه
يروي ويسخف من به يتفكه

والصمت للمرء الحليم وقاية
ينفي بها عن عرضه ما يكره

لا تنس حلمك حين يقرعك الأذى
من كل ما يجني عليك ويجبه[2]

وهكذا يمضي أبو العتاهية في توفير الخصائص الخطابية لشعره، حين يجعل أسلوبه قريب الشبه من لغة المحادثة

(١) السابق ص ٨٦.

(٢) السابق ص ٢٨٦.

العادية بحيث يصعب علينا أن نقف أمام شعره بعامة لننظر فيما اعتاد نفر من الشعراء أن يتخذوه من أدوات التصنيع ليضفوا على شعرهم ألواناً من الزخرفة والتوشية البديعية، فإن ضروب المحسنات اللفظية والمعنوية لا تكاد تبين في شعره بصفة عامة إلا ما يبدو فيه من ألوان المقابلات والمطابقات التي تستمد وجودها في هذا الشعر من انعكاس الحياة بصورها المتناقضة على نفس الشاعر، وقد رأينا كيف كانت نفسه متفرقة بين اللهو والجد مصرفة بين المجون والزهد نتيجة لنشأته التي جعلته نهباً لصراع نفسي عميق الأغوار، ونتيجة لصدى الحياة الإجتماعية التي كانت تكتشفه ومظاهرها المتناقضة. كل هذا كان لا بد أن ينعكس في شعره صوراً من المقابلات في التصوير والتعبير تنساب في غير جهد أو أناة أو تكلّف فجاءت طريقته في النظم لا تختلف عن أسلوب السرد العادي إلاّ في الإيقاع الموسيقي النابع من أعماق نفسه والذي تحدده القوالب الشعرية[1].

والحقيقة التي لا ينبغي أن تغرب عن بالنا في هذا المقام أن المتأمل في وجوه الحياة وصورها يجدها مليئة بصور شتى من التناقض والتضارب بحيث تبدو كأنها موزعة بين صورتين متقابلتين، ففي جانب منها الخلق والحياة وفي الجانب الآخر

(١) أنظر على سبيل المثال قصيدته في الديوان ص ٢٩٣ ـ ٢٩٥.

الموت والفناء وفيها الخير مقابل الشر وفيها الحب والكراهية وفيها الصدق والكذب والإخاء والعداء وغير ذلك من المظاهر الإجتماعية والأخلاقية والمادية والمعنوية وكلها تصور تناقضاً قوياً في صورها، فكان لا بد أن يظهر ذلك كله في شعر أبي العتاهية ألواناً من التطابق والتقابل حين يتناول في شعره الزهدي، وبطريقته الوعظية الخطابية، الحياة والموت وما بعدهما.

ومن السمات الخطابية في شعره كذلك ما نراه من حديثه عن القرون الأولى وإشارته إلى بعض الأشخاص والأحداث التاريخية التي تلفت الأذهان إلى الماضي وما كان فيه من فناء الدول، وزوال العروش وموت الملوك والأنبياء وغيرهم، كأن يقول:

سيفنينا الذي أفنى جديا
وأفنى قبلنا إرماً وطسما[1]

ويقول:

المنايا تجوس كل البلاد
والمنايا تبيد كل العباد
لتنالن من قرون آراماً
مثل ما نلن من ثمود وعاد

---

(١) الديوان ص ٢٤٩.

هن أفنين من مضى من نزار
هن أفنين من مضى من إياد
هل تذكرت من خلا من بني سا
سان أرباب فارس والسواد
أين داود أين أين سليما
ن المنيع الأعراض والأجناد
أين نمرود وابنه أين قارو
ن وهامان أين ذو الأوتاد[1]

ويقول:

أين القرون وأين المبتنون لنا
هذي المدائن فيها الماء والشجر
وأين كسرى أنوشروان مال به
صرف الزمان وأفنى ملكه الغير
بل أين أهل التقى والأنبياء ومن
جاءت بفضلهم الآيات والسور
أعدد أبا بكر الصديق أولهم
وناد من بعد في الفضل يا عمر
وعدد من بعد عثمان أبا حسن
فإن فضلهما يروى ويذكر

---

(١) السابق ص ٧٥ ـ ٧٦.

لم يبق أهـل التقى فيهـا لبـراهم

ولا الجبـابرة الأمـلاك مـا عمـروا[1]

فهو إنما يريد أن يوفر عن هذه الطريق كل عناصر الوعظ في شعره الزهدي وما حديثه عن الأمم والأشخاص والملوك المـاضيـة إلا وسيلة لكي يـدل على العبـرة التي يمكن استخلاصها من التذكير بهم، ومنهم الذي كان يضـرب به المثل في السلطان والعزة والمنعة والجبروت ومنهم الذي كان في التقى والزهد والبر. والغاية التي كان يريدها هي الوعظ والتذكير بالموت الذي يدرك كل إنسان مهما عظمت منعته، عظم خطره في أعين الناس.

وهو لا يقف عند توفير هذا العنصر في شعره، وإنما يعمد كذلك إلى الاقتباس والتضمين من الآثار التي وصلت إليه وكانت تدور على ألسن العلماء والوعاظ في عصره أما أخذه من القرآن الكريم والحديث الشريف وكذلك من أقوال الصحابة والتابعين والفقهاء الصالحين فذلـك أمر شـائع في شعـره، وخاصة شعر الزهد والحكمة، وذلك أمر طبيعي يستمد وجوده من الموضوع الذي يتناوله الشاعر والمعاني التي يدور فيها ومن الثقافة الدينية في عصره ومن حاجة هذا العصر.

---

(١) الديوان ص ١٠٤.

الخاتمة

وقبل أن أتوقّف عن الكتابة والتحبير أود أن أدوّن معالم هذه الدراسة وما توصلت إليه فيها.

فبدأت ببيئة الشاعر السياسية التي تَحدّثت فيها عن سياسة الخلفاء تجاه الرعية وعن حزمهم في قمع الثورات الشعبية والإلحادية التي كانت تظهر بين الحين والآخر. وعن توطيدهم الأمن وتوسيعهم لحدود الدولة ومدّهم لأطرافها حتى سمّي عصرهم بالعصر الذهبي؛ وكل ذلك بسبب الأمجاد العظيمة التي بلغوها والأنظمة الإدارية والوزارية التي أدخلوها. وعرضت الدور المميز الذي قامت به أسرة البرامكة في توجيه الحكم وتدبير السياسة.

وتحدثت في الفصل الثاني عن البيئة الإجتماعية وعمّا ظهر فيها من مذاهب ومعتقدات ونزعات تحررية، وعن انقسام المجتمع إلى طبقات العرب والمسلمين وغير المسلمين وعن ظهور طبقة الموالي التي أثّرت بشكل فعّال في المجتمع

العباسي بما أدخلته عليه من تطور وتجديد في نواحي الحياة المختلفة.

أما الفصل الثالث فقد خصّصته للحديث عن البيئة العقلية التي سادت في عصر الشاعر وأشرت إلى العوامل التي أثّرت في تكوين هذه البيئة كالامتزاج بين الثقافات ومراكز التعليم ومجالس المناظرات والمكتبات والترجمة والنقل وأبرزت أوجه هذا النشاط المختلفة كالبحث في الفلسفة والعلوم وجمع اللغة والأدب وتدوين التاريخ وتأسيس النقد وذكرت أبرز العلماء والأدباء الذين اشتهروا في تلك الحقول.

وتناولت في الفصل الرابع شخص أبي العتاهية وحياته فحددت الموضع الذي ولد فيه وبحثت في أصله النبطي وفي اللقب الذي أطلق عليه ورافقه مدى حياته وبعد وفاته. وتحدثت عن نشأته وجوانب مختلفة من حياته؛ ثم عرضت ثقافته التي استقاها من محيطه ومن الحركة الثقافية التي كانت منتشرة في عصره. وأشرت إلى زهده والأسباب التي دفعته إلى سلوك طريقه. وأنهيت هذا الفصل بتحديد السنة التي توفي فيها بعد استعراض الروايات المختلفة التي أشارت إلى هذا الموضوع.

وعرضت في الفصل الخامس، وهو صلب الرسالة،

أغراضه الشعرية. فبدأت الحديث فيها عن الغزل الذي عانى فيه الشاعر الكثير لأنه عشق بعض جواري النافذين في الدولة فصدّوه عن حبه وأشقوه في عشقه ولهذا أنشد الشعر المؤثّر الذي يعبر عن معاناته وحبّه المتيّم لِعُتْبَة وسعدى وسواهما من حبيباته. وتناولت في غرضه الثاني شعره الهجائي الذي هجا في بعض أخصامه مثل عبد الله بن زائدة وأخيه يزيد اللذين هدداه وألحقا الأذى به لأنه شبب بإحدى جواريهم المسماة سعدى كما هجا والبة بن الحباب واضطره إلى ترك بغداد.

وعرضت في غرضه الثالث عتابه لبعض رجال الدولة وبعض النافذين فيها كالعتاب الذي وجهه إلى ابن منصور وإلى العباس بن محمد عم الرشيد وسواهما.

وتحدثت في غرضه الرابع عما قاله في مدح خلفاء بني العباس وعلى الأخص ما قاله في مدح المهدي والهادي والرشيد وتغنّيه بامجادهم وبطولاتهم وبكرمهم وعطاءاتهم.

أمّا في غرضه الخامس فتحدثت عن شعره الوصفي وعن مهارته في وصف الحبيبة ووصف أيامه اللاهية ولياليه العابثة وفي وصف الخمرة وصفائها والساقي وحركاته.

وتناولت في الغرض السادس شعره الزهدي فأظهرت ألمه من ثقل الحياة عليه وندمه على ما فات في اللهو والعبث

من عمره وأشرت إلى بعض صور القبر والموت والتشاؤم والتوبة وعذاب النفس في شعره الزهدي.

وعرضت في الغرض السابع شعره في الموعظة الذي تخلّى فيه عن ماضيه العابث اللاهي إلى إنسان متزهّد واعظ يحذّر من الدنيا وغرورها ومن الحياة وشرورها ويدفع الإنسان إلى الاتعاظ والقيام بأعمال الخير لأنها أصلح له وأبقى.

ودرست في غرضه الأخير شعره الحكمي الذي يعبر عن نظرته الصائبة في الكون والحياة؛ وأشرت إلى بُعْد نظره في شؤون الناس والأخلاق والدين وهذا ناتج عن تمرّسه بالحياة وخبرته الطويلة في ممارسة تجاربها واستخراج مضمونها مما ولّد عنده هذه النظرات الحكيمة في التعبير والصائبة في التجربة الحياتية.

أمّا الفصل السادس والأخير فهو فصل الخصائص الفنّيّة الذي تحدثت فيه عن صياغة الشاعر المميزة بالسهولة والبساطة والخالية من الجزالة والتعقيد والبعيدة عن التقعُّر والغموض. وأشرت بعد ذلك إلى عدوله عن المقدمة الطللية إلى المقدمة الخمرية ثم إلى المقدمة الزهدية، وعن كسره لأسوار وأُطُر الأعاريض القديمة والأوزان التقليدية وعن لجوئه إلى الأوزان الطريفة التي لا تدخل في العروض أحياناً. ثم تحدثت عن

خصائصه الخطابية والبلاغية التي انتشرت في الكثير من نماذجه الشعرية .

وإنني اعتبر هذا البحث على الرغم مما كلّفني من جهد لَبِنَةً أضعها في هذا البناء الذي أرجو أن يتكاتف أصحاب الغيرة من ذوي المواهب على إعلاء صرحه ورفع بنائه وتقديم المزيد من الجهود في سبيله .

وفي النهاية أسأل الله العزيز أن يجنّبني الزهو بما قدمت أو الاعتقاد بأنه بلغ من الكمال غايته فليس هذا شأني ولا شأن الذين يعملون جاهدين لاستكمال أسباب الكمال وخاصة في الموضوعات العلمية والأدبية التي تهدف إلى خدمة الحق وتفتح ذراعيها لكل استدراك له قيمة .

والله ولي التوفيق

مختارات من شعر أبي العتاهية
في
أغراضه المتنوعة

١ - في الغزل:

قال في الشكوى في بلاء الحب:

أَخِـلَّاي بي شَجْوٌ وَلَيْسَ بِكُمْ شَجْـوُ
وَكُلُّ امرِىءٍ عن شَجْـوِ صاحِبـهِ خِلْوُ

ومـا مِنْ مُحِـبٍّ نـالَ مِمَّـنْ يُحِبُّـهُ
هـوىً صـادِقـاً إلَّا سَيَـدْخُلُهُ زَهْـوُ

بُلِيتُ وكـان المَـزْحُ بَـدْءَ بَـلِيَّتي
فـأحببتُ حَقّـاً والبـلاءُ لَـهُ بَـدْوُ

وَعُـلِّقْتُ مَـنْ يـزْهُـو عَلَيَّ تَـجَبُّـراً
وإنِّيَ في كُـلِّ الخِصـالِ لَـهُ كُفْـوُ

رَأَيْتُ الهَـوى جَمْرَ الغَضَى غَيْـرَ أنَّـه
على كُـلِّ حـالٍ عِنْـدَ صـاحِبِـهِ حُلْوُ

أذابَ الهَوَى جِسْمي ولحْمِي وَقُوَّتي
فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ الرُّوحُ والجَسَدُ النِّضْوُ

وقال في الحب القاتل:

يا إخْوَتي إنَّ الهَوى قاتِلي
فَيَسِّرُوا الأكْفانَ مِنْ عاجِلِ
ولا تَلُومُوا في اتِّباعِ الهوى
فإنَّني في شُغُلٍ شاغِلٍ
عَيْني على عُتْبَةَ مُنْهَلَّةٌ
بِدَفْعِها المُنْسَكِبِ السّائِلِ
يا مَنْ رَأى قَبْلي قَتيلاً بَكى
مِنْ شِدَّةِ الوَجْدِ على القاتِلِ
بَسَطْتُ كَفِّي نَحْوَكُمْ سائِلاً
ماذا تَرُدُّون على السّائِلِ
إنْ لَمْ تُنِيلُوهُ فَقُولُوا لَهُ
قَوْلاً جَميلاً بَدَلَ النّائِلِ
أَوْ كُنْتُمُ العامَ على عُسْرَةٍ
مِنْهُ فَمَنُّوهُ إلى قابِلِ
كأنَّها مِنْ حُسْنِها دُرَّةٌ
أَخْرَجَها اليَمُّ إلى الساحِلِ

كَـأَنَّ فـي فِـيـهـا وفـي طَـرْفِـهـا
سَـواحِـراً أَقْـبَـلْنَ مِـنْ بـابِـلِ
لَـمْ يُـبْـقِ مِـنِّـي حُـبُّـهـا مـا خَـلا
حُـشـاشَـةً فـي بَـدنٍ نـاحِـلِ

وقال في سقمه من حب عتبة:

أَسَيِّـدَتي هـاتي فَـدَيْتُـكِ ما جُـرْمي
فَـأَنْـزِلَ فيمـا تَشْتَهِينَ من الحُكْمِ
تَـلاَعَبْتِ بي يـا عُتْبُ ثُمَّ حَمَلْتِني
على مَـرْكَبٍ بين المَنِيَّـةِ والسُّقْمِ
خَـلِيلَيَّ مـالـي لا تَـزالُ مَضَـرَّتـي
تكونُ عِلى الأَقْدَارِ حَتْمـاً من الحَتْمِ
يُصـابُ فُؤادي حِيـنَ أُرْمي وَرَمْيَتي
تَعُـودُ إلى نَحْـرِي وَيَسْلَمُ من أَرْمي
صَـبَـرْتُ ولا واللهِ مـا بـي جَـلاَدَةٌ
على الصَّبْرِ لكِنْ قد صَبَرْتُ على رَغْمِي
أَلا في سَبِيـلِ اللهِ جِسْمِي وَقُـوَّتي
أَلا مُسْعِـدٌ حَتَّى أَنـوحَ على جِسْمي
تُعَـدُّ عِـظامي واحِـداً بَعْدَ واحِـدٍ
بِمَنْحىً مِنَ العُذَّالِ عَظْماً على عَظْمِ

كَفَـاكِ بِحَقٍّ اللهِ مـا قَـدْ ظَلَمْتِنِـي
فهـذا مَقَـامُ المُسْتَجِيـرِ من الظُّلْمِ

وقال في ظلم الحب وعبوديته:

قـالَ لي أَحْمَـدُ وَلَمْ يَـدْرِ مـا بِي
أَتُـحِبُّ الـغَـداةَ عُـتْـبَـةَ حَـقَّـا
فَـتَـنَـفَّـسْـتُ ثُـمَّ قُـلْتُ نَـعَـمْ
حُبَّاً جَرَى في العُـرُوقِ عِرْقاً فَعِرْقا
يـا لِـدَمْعِي عَـدِمْتُـهُ لَيْسَ يَـرْقـا
إِنَّـمـا يَسْتَهِـلُّ غَسْقـا فَغَسْقـا
لَـوْ تَـجُسِّـينَ يـا عُـتَيْبَـةُ قَـلْبِي
لَـوَجَـدْتِ الـفُؤادَ قَـرْحـاً تَـفَقَّـا
قَـدْ لَعَمْـري مَلَّ الطبيبُ وَمَـلَّ الأَ
هْـلُ مِنِّي مِمَّـا أُقـاسِي وَأَلْـقَى
لَـيْتَنِي مِتُّ فَـاسْتَـرَحْتُ فَـإِنِّي
أَبَـدَاً مـا حَيِيتُ مِنْهـا مُـلَقَّى
أنـا عَـبْـدٌ لـهـا مُـقِـرٌّ ومـا
يَمْلِكُ لي غَيْـرُهـا مِنَ النَّـاسِ رِقّـا
نـاصِـحٌ مُشْفِـقٌ وإنْ كُنْتُ مـا أُرْ
زَقُ مِنْهـا والـحَمْـدُ لله عُـتْـقَـا

وقال في دمية القس الفاتنة:

كَأَنَّ عَتَّابَةَ مِنْ حُسْنِهَا
دُمْيَةُ قَسٍّ فَتَنَتْ قَسَّهَا
يَا رَبِّ لَوْ أَنْسَيْتَنِيهَا بِمَا
فِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ لَمْ أَنْسَهَا
إِنِّي إذاً مِثْلُ التي لَمْ تَزَلْ
دَائِبَةً فِي طَحْنِهَا كُدْسَهَا
حَتَّى إذا لَمْ يَبْقَ مِنْهَا سِوى
حَفْنَةِ بُرٍّ قَتَلَتْ نَفْسَهَا

وقال في تشبيه الحبيبة بقمر الرصافة:

أَلَا يَا عُتْبَ يا قَمَرَ الرُّصَافَة
وَيَا ذَاتَ المَلَاحَةِ والنَّظَافَهْ
رُزِقْتِ مَوَدَّتِي وَرُزِقْتِ عَطْفِي
وَلَمْ أُرْزَقْ فَدَيْتُكِ مِنْكِ رَافَهْ
وَصِرْتُ مِنَ الهَوى دَنِفاً سَقِيماً
صَرِيعاً كَالصَّرِيعِ مِنَ السُّلافَهْ
أَظَلُّ إذا رَأَيْتُكِ مُسْتَكِيناً
كَأَنَّكِ قَدْ بَعَثْتِ عَلَيَّ آفَهْ

وقال عند فراقه لظبية بغداد:

أَمْسى بِبَغْدَادَ ظَبْيٌ لَسْتُ أَذْكُرُهُ
إلَّا بَكَيْتُ إذا ما ذِكْرُهُ خَطَرَا
إنَّ المُحِبَّ إذا شَطَّتْ مَنازِلُهُ
عَنِ الحبيبِ بَكى أَوْ حَنَّ أَوْ ذَكَرَا
يا رُبَّ لَيْلٍ طَويلٍ بِتُّ أَرْقُبُهُ
حَتَّى أَضاءَ عَمُودُ الصُّبْحِ فانْفَجَرَا
ما كُنْتُ أَحْسَبُ إلَّا مُذْ عَرَفْتُكُمُ
أَنَّ المضَاجِعَ مِمَّا تُنْبِتُ الإِبَرَا
واللَّيْلُ أَطْوَلُ مِنْ يَوْمِ الحِسابِ على
عَيْنِ الشَّجِيِّ إذا ما نَوْمُهُ نَفَرَا

٢ - في المدح:

قال يمدح المهدي وأخواله:

أَنْتَ المُقابَلُ والمُدا
بَرُ في المُنَاسِبِ والعَدِيدِ
بَيْنَ العُمومَةِ والخُؤُو
لَةِ والأُبُوَّةِ والجُدُودِ
فَإذا انتميتَ إلى أَبِيـ
ـكَ فأَنْتَ في المَجْدِ المَشيدِ

وإذا انــتــمــى خــالٌ فــمــا
خــالٌ بــأَكْــرَمَ مِــنْ يَــزِيــدِ

وقال يمدح المهدي وأخواله اليمانية أيضاً:

سُقِيتُ الغَيْثَ يـا قَصْـرَ السَّـلامِ
فَـنِعْـمَ مَـحَلَّةُ الـمَلِكِ الـهُـمـامِ
لَـقَـدْ نَشَـرَ الإِلٰـهُ عَـلَيْـكَ نُـوراً
وَحَـفَّـكَ بـالمـلائِكَـةِ الكِـرامِ
سَـأَشْكُـرُ نِعْمَـةَ المَـهْـدِيِّ حَتَّـى
تَـدُورَ عَـلَيَّ دائِـرَةُ الـحِـمـامِ
لَـهُ بَـيْـتـانِ بَـيْـتٌ تُـبَـعِـيٌّ
وَبَـيْـتٌ حَـلَّ بِـالـبَـلَدِ الـحَـرَامِ

وقال يمدح كرم المهدي:

عــلـم الــعــالــم أنّ الــمــنــايــا
ســامعــاتٌ لَــكَ فيـمَنْ عـصــاكــا
فــإذا أوْجــهــتــهــا نــحــو طــاغٍ
رجـعـت تــرعـف مـنــه قـنــاكــا
ولــو إن الـريـح بــارتـك يــومــاً
في سمــاحٍ قـصــرت عن نــداكــا

وقال يمدح كرمه أيضاً:

ومهمه قد قطعت طامسه
قفر على الهول والمحاماةِ
بِحُرّةٍ جِسْرةٍ عذاقرةٍ
خوصاء عيرانةٍ علنداةِ
تبادر الشمس كلما طلعت
بالسير تبغي بذاك مرضاتي
يا ناق خُبّي بنا ولا تعدي
نفسك مما ترين راحاتِ
حتى تُناخي بنا إلى ملكٍ
توّجه الله بالمهابات
عليه تاجان فوق مفرقه
تاج جلال وتاج إخباتِ
يقول للريح كلما عصفت
هل لك يا ريح في مباراتي
من مثل من عمّه الرسولَ ومن
أخواله أكرم الخؤولاتِ

وقال يمدح الرشيد:

جرى لك من هارون بالسعد طائره
إمامُ اعتزامٍ لا تخاف بوادره

إمـام لـه رأي حـميـد ورحـمـةٌ

مـوارده مـحـمـودة ومـصـادره

هو الملك المجبول نفساً على التقى

مسلّمـة من كـل سـوءٍ عسـاكـره

لتغمـد سيـوف الحـرب فـالله وحـده

ولـيٌّ أميـر الـمـؤمـنيـن ونـاصـره

وهارونُ ماءُ المُزْنِ يُشْفَى به الصَّدَى

إذا ما الصَّدى بالرِّيق غَصَّتْ حَناجِرُهْ

وَأَوْسَطُ بَـيـتٍ في قـريش لَـبـيتُـه

وأوّلُ عِـزٍّ فـي قـريش وآخـرُهْ

وَزَحْفٍ لَـهُ تَحْكِي البـروقَ سيـوفُـهُ

وَتَحْكِي الـرعودَ القـاصفاتِ حـوافِـرُهْ

إذا حَمِيَتْ شمسُ النَّهـار تضـاحَكَتْ

إلى الشَّمْسِ فيـهِ بَيْضُـهُ وَمَغَـافِـرُهْ

إذا نُكِبَ الإسْـلامُ يـومـاً بِنَكْبَـةٍ

فهـارُونُ من بين البَـرِيَّـةِ ثـائِـرُهْ

وَمَنْ ذا يفوت الموتَ والموتُ مُدْرِكٌ

كـذا لم يَفُتْ هـارونَ ضِـدٌّ يُنَـافِـرُهْ

وقال يمدح العباس بن محمد عم الرشيد:

لو قيل للعباس يابن محمدٍ
قل «لا» وأنت مُخَلّدٌ ما قالها
ما إن أعدُّ من المكارم خصلةً
إلّا وجدتك عمّها أو خالها
وإذا الملوك تسايرت في بلدةٍ
كانوا كواكبها وكنت هلالها
إنّ المكارم لم تزل معقولةً
حتى حَلَلْتَ براحتيك عقالها

وقال يمدح الرشيد حين عقد ولاية العهد لبنيه الثلاثة: الأمين والمأمون والمؤتمن:

رحلت عن الربع المحيل قعودي
إلى ذي زحوفٍ جمةٍ وجنود
وراعٍ يراعي الليل في حفظ أمةٍ
يدافع عنها الشر غير رقود
بألوية جبريل يقدم أهلها
ورايات نصر حوله وبنود
تجافى عن الدنيا وأيقن أنها
مفارقة ليست بدار خلود

وشـدَّ عُـرى الإسـلام منـه بفتيـةٍ
ثـلاثـة أمـلاك ولاةِ عـهـود
هـم خيـر أولادٍ لـهم خـيـر والـدٍ
لـه خـيـر آبـاءٍ مـضـت وجـدود
بنـو المصطفى هـارون حول سـريره
فـخـيـر قـيـام حـولـه وقـعـود
تـقلّب ألـحـاظ المـهـابـة بيـنهـم
عـيـون ظـبـاءٍ فـي قـلوب أسـود
جـدودهـم شـمس أتـت فـي أهـلةٍ
تـبـدّت لِـراءٍ في نـجـوم سـعـود

وقال يمدح الأمين:

يـابـن عمّ النّبـي خـيـر الـبـريـة
إنـمـا أنـت رحـمـة لـلرعـيـة
يـا إمـام الهـدى الأمين المصفى
يـا لبـاب الخـلافـة الهـاشمية
لـك نـفس أمـارة لـك بـالخيـر
وكـفٌّ بـالـمـكـرمـات نـديـه
إن نـفـسـاً تـحـمـلت مـنـك
مـا حُمّلت للمسلمين نفس قـويـة

وقال يمدحه أيضاً:

يـا عمـود الإسـلام خيـر عمـود
والـذي صيـغ من حيـاءٍ وجـود
والـذي فيـه مـا يـسـلّي ذوي
الأحـزان عن كـل هـالـكٍ مفقـود
والأمـين الـمهـذّب الـهـاشمـي الـ
ـقـرم مَحْضُ الآبـاء مَحْضُ الجـدود
إن يـومـاً أراك فيـه لـيـوم
طـلعت شـمسـه بسعـد الـسعـود

٣ ـ في الهجاء:

قال يهجو عبد الله بن معن بن زائدة:

جَـلَدَتْـنِـي بِـكَـفِّـهـا
بـنـتُ مـعـنِ بـن زائـدهْ
جَـلَدتـنـي فَـأَوْجـعـتْ
بـأبـي تِـلك جَـالـدهْ
وتَـراهـا مـع الـخَـصِـيّ
عـلى الـبـاب قـاعـدهْ
تَـتَـكَـنَّـى كُـنَـى الـرجـا
لِ بِـعَـمْـدٍ مُـكَـايـدهْ

جلدَتْني وبالغتْ
مائةً غيرَ واحدةْ
اجْلديني واجْلِدي
إنّما أنتِ والدهْ

وقال يهجو يزيد بن معن بن زائدة أخو عبد الله:

بَنَى مَعْنٌ وَيَهْدِمُهُ يزيدُ
كذاك الله يفعل ما يُريدُ
فَمَعْنٌ كان لِلْحُسَّادِ غَمَّاً
وهذا قد يُسَرُّ به الحسود
يزيدُ يزيدُ في مَنْعٍ وبخْلٍ
ويَنْقُص في النوال ولا يزيد

وقال يهجو والبة بن الحُباب:

أوالبُ أنت في العرب
كمثل الشيص في الرطب
هلمّ إلى الموالي الصيد
في سعةٍ وفي رحب
فأنت بنا لعمر الله
أشبه منك بالعرب

غضبت عليك ثم رأيت
وجهك فانجلى غضبي
لما ذكرتني من لو
ن أجدادي ولون أبي
فقل ما شئت أقبله
وإن أطنبت في الكذب
لقد أخبرت عنك وعن
أبيك الخالص العرب
فقال العارفون به
مُصاصٌ غير مؤتشب
أتانا من بلاد الرو
م معتجراً على قتب
خفيف الحاذ كالصمصا
م أطلس غير ذي نشب
أوالب ما دهاك وأنت
في الأعراب ذو نسب
أراك ولدت بالمريخ
يابن سبائك الذهب
فجئت أُقيشر الخدين
أزرق عارم الذنب

لـقـد أخـطأت فـي شـتـمـي
فـخـبـرنـي ألـم أُصِـبِ

وقال يهجو عبد الله بن معن بن زائدة الذي منعه من حبيبته:

أَلَا قُـلْ لابـنِ مـعْـنٍ ذا
الـذي فـي الـوُدِّ قـد حـالا
لـقـد بُـلِّغْـتُ مـا قـال
فـمـا بـالـيـتُ مـا قـالا
ولـو كـان مـن الأُسْـدِ
لَـمَـا رَاع ولا هـالا
فـصُـنْـع مـا كـنـتَ حَـلَّيْـتَ
بـه سَـيْـفَـكَ خِـلْخَـالا
فـمـا تـصـنَـع بـالـسـيـفِ
إذا لـم تَـكُ قَـتَّـالا
ولـو مَـدَّ إلـى أُذنـيـ
ـه كَـفَّـيـه لـمـا نَـالا
قَـصـيـرُ الـطَّوْلِ والـطُّولِ
فـلا شَـبَّ ولا طَـالا
أرى قـومَـك أبـطالا
وقـد أصـبـحـتَ بـطّالا

٤ ـ في الوصف:

قال في وصف البنفسج:

ولا زوردية تزهو بزرقتها
بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها ورقات القضب تحملها
أوائل النار في أطراف كبريت

وقال في وصف حبيبته عتبة:

وإني لمعذور على طول حُبِّها
لأن لها وجهاً يدل على عذري
إذا ما بدت والبدر ليلة تِمِّهِ
رأيت لها فضلاً مبيناً على البدر
وتهتزُّ من تحت الثياب كأنها
قضيب من الريحان في ورقٍ خضر
أبى الله إلاّ أن أموت صبابة
بساحرة العينين طيّبةِ النشر
وتبسم عن ثغرٍ نقِيٍّ كأنه
من اللؤلؤ المكنون في صدف البحر
يخبّرني عنه السّواك بطيبه
ولست به لولا السواك بذي خبر

وقال في وصف الخمرة:

لَهْفي عَلَى الزَّمَنِ القَصيرِ
بَيْنَ الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ
إذْ نَحْنُ في غُرَفِ الجِنا
نِ نَعُومُ في بَحْرِ السُّرورِ
في فِتْيَةٍ مَلَكوا عِنا
نَ الدَّهْرِ أمثالِ الصُّقُورِ
ما مِنْهُمُ إلّا الجَسُو
رُ على الهَوى غَيْرُ الحَصورِ
يَتَعاوَرُونَ مُدامَةً
صَهْبَاءَ من حَلَبِ العَصِيرِ
عَذْرَاءَ رَبَّاها شُعا
عُ الشَّمْسِ في حَرِّ الهجيرِ
لم تُدْنَ من نارٍ ولَمْ
يَعْلَقْ بِها وَضَرُ القُدُورِ
وَمُقَرْطَقٍ يمشي أما
مَ القَوْمِ كالرَّشَإِ الغَريرِ
بِزُجَاجَةٍ تستخرجُ السِّرَّ
الدفينَ من الضميرِ

زَهـراءَ مـثـلِ الـكَـوْكَـبِ
الـدُّرِّيِّ فـي كـفِّ الـمـدَيـرِ
تـدعُ الـكـريـمَ ولـيس يَـد
رِي مـا قـبـيـلٌ مـن دبـيـرِ

٥ ـ في الزهد:

قال في بداية زهده تائباً إلى الله ونادماً على ماضيه العابث.

إلٰـهـي لا تـعـذّبـني فـإنـي
مـقـرٌّ بـالـذي قـد كـان منّـي
ومـالـي حـيـلة إلّا رجـائـي
وعـفـوك إن عفـوت وحسن ظنّي
فـكم مـن زلـةٍ لـي فـي الـبـرايـا
وأنـت عـليّ ذو فـضـلٍ ومـنِّ
إذا فـكـرت فـي نـدمي عـليـهـا
عـضـضـت أنـاملي وقـرعـت سنّـي
يـظنّ الـنـاس بـي خـيـراً وإنـي
لـشـرُّ النـاس إن لـم تعـفُ عـني
أجـن بـزهـرة الـدنـيـا جـنـونـاً
وأفـني الـعـمـر فيهـا بـالـتـمنّي

وبــيــن يــدي مــحــتــبس طــويــا
كــأنــي قــد دعيــت لــه كــأنــي
ولــو أني صــدقت الــزهــد فيهــا
قــلبت لأهــلهــا ظــهــر الــمجــن

وقال الشاعر محذّراً من التعلُّق بالدنيا:

تَــعَــلَّقْــتُ بــآمــالٍ
طِــوالٍ أيِّ آمــالِ
وأقــبــلتُ عــلى الــدُّنــيــا
مُــلِحّــاً أيَّ إقْــبــالِ
فــيــا هــذا تَــجَــهَّــزْ لــ
ـفــراق الأَهــل والــمــالِ
فــلا بُــدَّ مِــنَ الــموتِ
عــلى حــالٍ مــن الــحــالِ

وقال مزهّداً في الدنيا ومحذّراً من شرورها:

لعمــرك مــا الــدنــيــا بــدار بقــاءِ
كــفــاك بــدار الــمــوت دار فــنــاء
فــلا تعشق الــدنيــا أخــيّ فــإنمــا
تــرى عــاشق الــدنيا بجهــد بــلاء

حلاوتها ممزوجة بمرارةٍ
وراحتها ممزوجة بعناء
فلا تمشِ يوماً في ثياب مخيلةٍ
فإنك من طينٍ خُلِقْتَ وماء
لقل امرؤ تلقاه لله شاكراً
وقلّ امرؤ يرضى له بقضاء
ولله نعماء علينا عظيمة
ولله إحسان وفضل عطاء
وما الدهر يوماً واحداً في اختلافه
وما كل أيام الفتى بسواء
وما هو إلّا يوم بؤس وشدةٍ
ويوم سرورٍ مرة ورخاء
وما كل ما لم أرجُ أحرم نفعه
وما كل ما أرجوه أهل رجاء
أيا عجباً للدهر لا بل لريبه
نخرم ريب الدهر كل إخاءِ
ومزّق ريب الدهر كل جماعة
وكدّر ريب الدهر كل صفاء
إذا ما خليل حلّ في برزخ البلى
فحسبي به نأياً وبعد لقاء

أزور قبور المترفين فلا أرى
بهاءً وكانوا قبل أهل بهاء
وكل رماه واصل بصريمةٍ
وكل رماه ملطف بجفاء
طلبت فما ألفيت للموت حيلة
ويعيي بداء الموت كل دواء
ونفس الفتى مسرورة بنمائها
وللنقص تنمى كل ذات نماء
وكم من مفدّى مات لم أرَ أهله
حبوه ولا جادوا له بغداء
أمامك يا ندمان دار سعادة
يدوم النما فيها ودار شقاء
خلت لإحدى الغايتين فلا تنم
وكن بين خوفٍ منهما ورجاء
وفي الناس شرٌّ لو بدا ما تعاشـ
ـروا ولكن كساه الله ثوب غطاء

وأنشد أبو العتاهية شعراً يتحسر فيه على الشباب قال فيه:

بكيت على الشباب بدمع عيني
فلم يُغنِ البكاء ولا النحيب

فيا أسفاً أسفت على شباب
نعاه الشيب والرأس الخضيب
عريت من الشباب وكان غضاً
كما يعرى من الورق القضيب
فيا ليت الشباب يعود يوماً
فأخبره بما صنع المشيب .

وقال محذّراً من الحرص والطمع :

أذلّ الحرص والطمع الرقابا
وقد يعفو الكريم إذا استرابا
إذا اتضح الصواب فلا تدعه
فإنك كلما ذقت الصوابا
وجدت له على اللهوات برداً
كبرد الماء حين صفا وطابا
وليس بحاكم من لا يبالي
أأخطأ في الحكومة أم أصابا
وإن لكل تلخيص لوجها
وإن لكل مسألة جوابا
وإن لكل حادثة لوقتاً
وإن لكل ذي عمل حسابا

وإن لكل مطلع لحدّاً

وإن لكل ذي أجل كتابا

وكل سلامة تعد المنايا

وكل عمارة تعد الخرابا

وكل مملك سيصير يوماً

وما ملكت يداه معاً تبابا

أبت طرفات كل قرير عين

بها إلّا اضطرابا وانقلابا

كأن محاسن الدنيا سراب

وأي يدٍ تناولت السرابا

وإن تك منية عجلت بشيء

تُسَرُّ به فإن لها ذهابا

فيا عجباً تموت وأنت تبني

وتتخذ المصانع والقبابا

أراك وكلما أغلقت باباً

من الدنيا فتحت عليك بابا

ألم تر أن كل صباح يوم

يزيدك من منيتك اقترابا

وحق لموقن بالموت ألا

يسوغه الطعام ولا الشرابا

يـدبـر مـا نـرى مـلك عـزيـز
بـه شـهـدت حـوادثـه وغـابـا
ألـيس الله مـن كـل قـريـبـاً
بلى من حيث مـا نـودي أجـابـا
ولـم تـر سـائـلاً لله أكـد
ولـم تـر راجـيـاً لله خـابـا
رأيت الـروح جـدب العيش لمّـا
عـرفت العيش مخضـاً واحتـلابـا
ولـست بـغـالـب الـشهـوات حـتـى
تـعـد لـهـن صـبـراً واحـتـسابـا
فـكـل مصـيبـة عـظمـت وجـلت
تـخـفّ إذا رجـوت لـهـا ثـوابـا
كـبـرنـا أيـهـا الأتـراب حـتـى
كـأنـا لـم نكـن حـيـنـاً شـبـابـا
وكـنـا كـالـغـصـون إذا تـثـنّـت
مـن الـريحـان مـونـقـة رطـابـا
إلـى كـم طـول صبوتـنـا بـدارٍ
رأيت لهـا اغتصـابـاً واسـتـلابـا
ألا مـا لـلكـهـول ولـلتـصـابـي
إذا مـا اغـتـر مكـتهـل تـصـابـي

فزعت إلى خضاب الشيب منه
وإنّ نصوله فضح الخضابا
مضى عنّي الشباب بغيرِ ودي
فعند الله احتسب الشبابا
وما من غاية إلاّ المنايا
لمن خلقت شبيبته وشابا
وما منك الشباب ولست منه
إذا سألتك لحيتك الخضابا

وقال في غنى النفس والعمل الصالح :

أشد الجهاد جهاد الهوى
وما كرّم المرء إلاّ التقى
وأخلاق ذي الفضل معروفة
ببذل الجميل وكفّ الأذى
وكُلّ الفكاهات مملولةٌ
وطول التعاشر فيه القلى
وكلٌّ طريف له لذة
وكل تليدٍ سريع البلى
ولا شيء إلاّ له آفة
ولا شيء إلاّ له منتهى

وليس الغنى نشب في يدٍ
ولكن غنى النفس كُلُّ الغِنى
وإنا لفي صُنُعٍ ظاهِرٍ
يدلُّ على صانعٍ لا يُرى

وقال محذّراً من الزهو والإعجاب بالنفس:

من تراب خلقت لا شك فيه
وغداً أنت صائر للتراب
كيف تلهو وأنت من حمإ الطيـ
ـن وتمشي وأنت ذو إعجاب
فخفِ الله واترك الزهو واذكر
موقف الخاطئين يوم الحساب
وسل الله زُلفة واعتصاماً
وخلاصاً من مؤلفات العقاب

وقال في الصديق الصالح:

إلّا إنما الإخوان عِند الحقائق
ولا خير في ودِّ الصديق المماذق
لعمرك ما شيء من العيش كُلِّه
أقرَّ لعيني من صديق موافق

وكـل صـديقٍ ليس في الله وُدّهُ
به في ودّه غير واثق
أحب أخي في الله ما صحّ دينه
وأفرشُهُ ما يشتهي من خلائق
وأرغب عمّا فيه ذُلٌّ وريبة
واعلم أن الله ما عشت رازقي
صفيي من الإخوان كل موافق
صورٍ على ما ناب عند الحقائق

وقال في الموضوع عينه:

إذا قلّ مال المرء قلّ صديقه
وضاقت به عما يريد طريقه
وقصّر طرف العين عنه كلالة
وأسرع فيما لا يحب شقيقه
وذمّ إليه خِدنه طعم عوده
وقد كان يستحليه حين يذوقه

وقال في كيفية التعامل مع الصديق:

فإذا الزمان رمى الفتى بملمة
كان الثقات عليه من أعوانه

أقلل زيــارتـك الصــديق ولا تــطل
هـجــرانــه فـيلجّ فـي هـجــرانــه
واعلم بــأنــك لا تــلائم كــل من
ألـقـى إلـيــك تـلهّــفــاً بـلســانــه
إن الـصــديق يـلجُ في غـشيــانــه
لصــديقــه فـيمــلُّ مـن غشـيــانــه
حـتـى تــراه بـعــد طــول مـســرةٍ
بـمكــانــه مـستثـقــلاً لـمكــانــه
وأخَفُّ مــا يلفي الفتى ثـقــلاً على
إخــوانــه مــا كـفّ عـن إخــوانــه
وإذا تــوانى عن صـيــانــة نفســه
رجــل تُنُقِّصَ واسـتخـفّ بشــانــه

وقال محذّراً من الكذب وعدم التواضع :

لا تــكــذبــن فــإنــني
لــك نــاصــح لا تــكــد بــنــه
وانــظر لــنـفــسـك مــا اســتــطـ
ـعــت فــإنــهــا نــار وجــنّــة
واعــلم بــأنــك فــي زمــا
ن مــشــبّــهــاتٍ هــنّ هــنــه

صار التواضع بدعةً
فيه وصار الكبر سُنّه

وقال محذّراً من الكذاب:

إياك من كذب الكذوب وإفكه
فلربما مزج اليقين بشكه
ولربمنا ضحك الكذوب تكلّفاً
وبكى من الشيء الذي لم يبكه
ولربما صمت الكذوب تخلقاً
وشكى من الشيء الذي لم يُشكه
ولربما كذب امرؤ بكلامه
وبصمته وبُكائه وبضحكِهِ

وقال في التحذير من الحرص والتشجيع على فعل الخير:

الحرص داء قد أضرّ
بمن ترى إلا قليلا
كم من عزيز قد رأيت
الحرص صيّره ذليلا
فتجنّبِ الشهواتِ واحـ
ـذر أن تكون لها قتيلا

فلرب شهوةِ ساعةٍ
قد أورثت حزناً طويلا
من لم يكن لك منصفاً
في الود فابغ به بديلا
وتوّق جهدك أن تكو
ن لكل ذي سخف دخيلا
وعليك نفسك فارعها
واكسب لها فعلاً جميلا
والمرء إن عرف الجميل
وجدته يبغي الجميلا
كشفت أخلاق الرجا
ل وذقتهم جيلاً فجيلا
أضرب بطرفك حيث شئـ
ـت فلا ترى إلّا بخيلا
يا موطن الدار التي
هو مسرع عنها الرحيلا
إن لم تنل خيراً أخا
ك فكن عليه له دليلا
وإذا أنلت أخاً فلا
تستكثرن له الجزيلا

وقال محذراً من جمع المال ومشجّعاً على إنفاقه:

ما بال قلبك لا تحركه
عظة على ماذا تورّكه
ماذا تؤمل لا أبا لك في
مال تموت وأنت تمسكه
ما لم تكن لك فيه منفعة
مما ملكت فلست تملكه
أنفق فإن الله يُخْلِفُهُ
لا تمضِ مذموماً وتتركه

وقال حاضاً على فعل الخير بين الناس:

لا تك في كل هوىً تنهمك
ولا تكونن لجوجاً مَحِكْ
نافس إذا نافست في حكمةٍ
ولا تدع خيراً ولا تترُّكْ
واصنع إلى الناس جميلاً كما
تحب أن يصنعه الناس بك
من قرَّ عيناً بغنىً بلُغةٍ
يوماً بيوم عاش عيش الملك

٦ ـ في الحكم والمواعظ:

قال في إحدى مواعظه:

من سالم الناس سلم
من شاتَم الناس شُتمْ
من ظلم الناس أسا
من رحم الناس رحم
من طلب الفضل إلى
غير ذوي الفضل حُرِمْ
من حفظ العهد وفى
من أحسن السمع فهم
من صدق الله علا
من طلب العلم علم
من خالف الرشد غوى
من تبع الغي ندم
من لزم الصمت نجا
من قال بالخير غنم
من عفّ واكتفّ زكا
من جحد الحق أَثِم
من مسّه الضُّرُ شكا
من عضه الدهر ألم

لم يعد حيّاً رِزقُهُ
رُزِقَ امرىءٍ حيث قسم

وقال واعظاً من يجمع المال:

ما لنا لا نتفكّرْ
أين كسرى أين قيصرْ
أين من قد جمع الما
ل مع المال فأكثر
أين من كان يسامي
بفتى الدنيا ويفخر
ليت شعري أي شيء
بعد شيء أتنظّر
قد رأيت الدهر يفني
معشراً من بعد معشر
ليس يبقى ذو يسارٍ
لا ولا من كان مُعْسِرْ

وقال مطلقاً الحكم والأمثال:

ما رأيت العيش يصفو لأحد
دون كدٍّ وعناءٍ ونكدْ

كن لما قدّمْتُهُ مغتنماً

لا تؤخّر عمل اليوم لغد

إن للموت لسهماً قاتلاً

ليس يفدي أحداً منه أحد

قد أرى أن لست في الدنيا ولو

بقيت لي دائماً طول الأبد

إنني منها غداً مرتحل

أو أراني راحلاً من بعد غد

أجمع المال لغيري دائباً

وأقاسي العيش منه في كبد

لمن المال الذي أجمعه

ألنفسي أم لأهلي والولد

ما يبالي ولدي بعدي إذا

عيّبوا والدهم تحت اللبد

وأصابوا ماله من بعده

ألغيّ قد مضى أم لرشد

إنما دنياك يوم واحد

فإذا يومك ولّى ولم يعد

يفعل الله إلهي ما يشا

ما لأمر الله فينا من مرد

يــرزق الأحــمــق رزقــاً واســعــاً
وتــرى ذا الـلـب محــرومــاً نـكــد

وقال يعظ الذين يتعلقون بالدنيا ويحذّرهم من زوالها:

لــدوا لـلمــوت وابـنــوا لـلخــراب
فــكــلكم يـصــيـر إلــى ذهــاب
لـمـن نـبـني ونـحــن إلى تــراب
نـصيــر كـمــا خلقـنــا مـن تــراب
ألا يــا مــوت لـم أرَ مـنــك بــداً
أبـيت فــلا تـجـيف ولا تـحــابي
كــأنــك قــد هجمت على مشيـبي
كمــا هجم المشيب على شبــابي
ويــا دنــيــاي مــالــي لا أرانــي
أســومــك مــنــزلاً إلاّ نــبــا بــي
ألا وأراك تــبــذل يــا زمــانــي
لـي الــدنيــاوتـســرع بــاستــلابيّ
وإنــك يــا زمــان لــذو صــروف
وإنــك يــا زمــان لــذو انــقــلاب
ومــالي لست أحلب منــك شــطراً
فــأحمــد غبَّ عــاقبــة الحــلاب

ومالي لا ألحُّ عليك إلّا
بعثت الهم لي من كل باب
أراك وإن طلبت بكل وجه
كحلم النوم أو ظل السحاب
أو الأمس الذي ولّى ذهاباً
فليس يعود أو لمع السراب
وهذا الخلق منك على وفازٍ
وأرجلهم جميعاً في الركاب
وموعد كل ذي عملٍ وسعيٍ
بما أسدى غداً دار الثواب
تقلدت العظام من الخطايا
كأني قد أمنت من العقاب
ومهما دمت في الدنيا حريصاً
فإني لا أوفق للصواب
سأسأل عن أمورٍ كنت فيها
فما عذري هناك وما جوابي
بأية حجةٍ احتج يوم الـ
ـحساب إذا دعيت إلى الحساب
هما أمران يوضح عنهما لي
كتابي حين أنظر في كتابي

فـإمـا أن أخـلد فـي نـعـيـم

وإمـا أن أخـلد فـي عـذاب

وحذّر الإنسان من أن لا يغترّ بالجمال بل بالعقل النير والعمل الصالح.

لا يعجبنّـك يـا ذا حسنُ منـظرةٍ

لم يجعـل الله فيها حسن مخبـرةِ

خير اكتساب الفتى ما كان من عملٍ

زاكٍ وصبـرٍ على عُسـرٍ وميسـرةِ

وأفضـل الزهـد زهد كـان عن جـدةٍ

وأفضـل العفـو عفـوٌ عنـد مقـدرةِ

لا خيـر لا خير لـلإنسان في طمعٍ

يـصـيـر منـه إلى ذل ومـحـقـرةِ

استغـفـر الله من ذنـبي وأسـألـه

عيشـاً هنيئـاً بـأخـلاقٍ مـطهّـرةِ

وقال في وعظ الناس وكيفية تعاملهم فيما بينهم:

إكـره لغيـرك مـا لنفسـك تكـره

وافعـل بنفسـك فعـل من يـتـنـزّه

وادفـع بصمتك عنـك خاطـرة الخنا

حــذر الجـواب فــإنـه بــك أشبـه

وكـل السفيه إلى السفـاهـة وانتصف

بــالحلم أو بــالصمت ممن يسـفـه

ودع الفكــاهــة بــالـمـزاح فــإنـه

يــردى ويـسخـف من بــه يـتفـكــه

والصمـت للمــرء الحليـم وقــايــة

ينفي بهــا عن عـرضــه مــا يكــره

لا تنس حلمـك حين يقرعـك الأذى

من كــل من يجني عليـك ويجبـه

فلربمــا صبــر الحليم عـلى الأذى

حــتــى يــرى وكــأنــه يــتــدلــه

ولــربمــا حجـب الحـليم جـوابــه

بــالـصمـت منـه وإنــه لـمـعـفّــره

ولـربما جمـح السِّفـاه بـذي الحِجـا

حتـى يُــذلّـله الــدنـيء الأسـفــه

ولــربـمــا نـسـي الــوقــور وقــاره

حـتـى تــراه جــاهــلاً يــتــدهــده

ولــربمـا نهنهت عنــك ذوي الخنـا

بــالصمت إلاّ أحجمــوا وتنـهنـهــوا

إن الحليم من الأذى متحجّب

وعن الخنا متوفّر متنزّه

والبغي يصرع أهله ويريكهم

وجميعهم من صرعه يتأوّه

إن الزمان لأهله لمؤدّب

بصروفه وميقظ ومنبه

أفقهت عن عبر الزمان صفاتها

هيهات لست أراك عنها تفقه

ولقد أراك تعبت في طلب الغنى

شرها وليس يناله من يشره

وأراك في الدنيا وأنت منازع

ومنافس وممازع ومقهقه

قل للذين تشبهوا بذوي التقى

لا يلعبن بنفسه متشبه

هيهات لا يخفى التقى من ذي التقى

هيهات لا يخفى امرؤ متألّه

إن القلوب إذا طوت أسرارها

أبدت لك الأسرار منها الأوجه

وقال في إظهار فضل السكوت:

إنْ كانَ يُعْجبكَ السكوتُ فإنه
قد كان يُعْجب قبلَكَ الأخْيارا

ولئن ندمت على سكوتك مرة
فلقد ندمت على الكلام مرارا

إن السكوت سلامة ولربما
زرع الكلام عداوةً وضرارا

وإذا تقرّب خاسرٌ من خاسرٍ
زاد بذاك خسارة وتبارا

ومن أقواله الحكمية:

ما طار طيرٌ فارتفعْ
إلّا كما طارَ وَقَع

وقال واعظاً من يأمر بالحق ولا يفعله:

يا ذا الذي يقرأ في كتبه
ما أمَرَ الله ولا يعمَل

قد بيّنَ الرحمٰن مقت الذي
يأمُرُ بالحَقِّ ولا يفعل

من كان تشبه أفعاله
أقواله فصمته أجمل

من عــذل النــاس فنفسـي بـمــا
قــد قــارفــتِ مـن ذنـبـهــا أعــذل
إن الــذي يـنـهــي ويــأتـي الــذي
عـنــه نهـى في الـحكـم لا يعــدل
وراكـــب الـــذنـــب عـــلى جــهـــله
أعـــذر مـــمـن كــان لا يــجــهـل
لا تـخـلـطن مــا يــقـبــل الله مـــن
فـعـــل بـقـــولٍ مـنــكَ لا يـقـبــل

وقال في التحذير من غرور الدنيا:

يــا خــاطـب الــدنيــا إلى نفسـهــا
تــنــحَّ عـن خــطـبـتـهــا تــسـلـم
إن الـــتـــي تـــخــطـب غـــرارة
قــريـبــة الـعُـرس مـن الـمــأتــم

وقال في أرجوزته ذات الأمثال:

حَـسْبُــكَ مِـمَّــا تَبْـتَغِيــهِ الـقــوتُ
مــا أكْـثَــرَ القُــوتَ لِـمَـنْ يـمــوتُ
الـفقــرُ فِـيـمــا جــاوز الـكَـفَــافـا
مَـــنِ اتــقَـــى الله رجــا وخــافــا

هي المقاديرُ فَلُمْنِي أو فَذَرْ
إنْ كُنْتُ أخطأتُ فما أخطا القَدَرْ

لِكُلِّ ما يُؤْذِي وإن قَلَّ أَلَمْ
ما أَطْوَلَ اللّيْلَ على من لَمْ يَنَم

ما انتفعَ المرْءُ بمثلِ عَقْلِهِ
وخيرُ ذُخْرِ المرْءِ حُسْنُ فِعْلِهِ

إنَّ الفسادَ ضِدُّهُ الصَّلاحُ
وَرُبَّ جِدٍّ جَرّهُ المُزَاحُ

مَنْ جَعَلَ النَّمَّامَ عيناً هلَكا
مُبْلِغُك الشَّرَّ كَباغِيهِ لكَا

إنَّ الشَّبابَ والفَراغ والجِدَة
مَفْسَدةٌ للمرءِ أيُّ مَفْسَدهْ

يُغْنِيكَ عن كُلِّ قبيحٍ تَرْكُهُ
يَرْتَهِنُ الرأْيَ الأصيلَ شَكُّهُ

ما عَيْشُ مَنْ آفتُهُ بقاؤُهْ
نَغَّص عيشاً كلَّهُ فَناؤُهُ

يا رُبَّ مَنْ أَسْخَطَنا بجَهْدِهِ
قد سَرَّنا الله بغيرِ حَمْدِه

ما تطلُعُ الشمسُ ولا تغيبُ
إلَّا لأمْرٍ شأنُهُ عجيبُ

لِـكُـلِّ شـيءٍ مَـعْـدِنٌ وَجَـوْهَـرُ
وأوسطٌ وأصـغـرٌ وأكـبـرُ

مَنْ لَـكَ بـالمَحْضِ وكُـلٌّ مُتـزِجْ
وسـاوسَ في الصّـدْرِ منـه تَعْتلِجْ

وكُـلُّ شـيءٍ لاحـقٌ بـجـوهـرِهْ
أصـغُـره مُـتَّـصِـلٌ بـأكـبـرِهْ

مـا زالـتِ الـدنـيـا لـنـا دارَ أذَى
ممـزوجـةَ الصَّفْـو بـألـوان القَـذَى

الـخَـيْـرُ والـشَّـرُّ بـهـا أزواجُ
لِـذا نِـتـاجٌ ولـذا نِـتـاجُ

مَنْ لَـكَ بِـالمَحْضِ وليس مَحْضُ
يَـخْـبُـث بـعضٌ ويـطـيـب بـعضُ

لـكـلِّ إنـسـانٍ طـبـيـعـتـانِ
خـيـرٌ وشـرٌّ وهـمـا ضِـدَّانِ

إنَّـكَ لـو تَـستنشق الشَّـحِـيـحَـا
وجـدتَـهُ أنـتـنَ شـيء ريـحَـا

والـخـيـرُ والـشَّـرُّ إذا مـا عُـدَّا
بـيـنـهـمـا بَـوْنٌ بـعـيـدُ جِـدَّا

عَـجِبْـتُ حتـى غَمَّـنِـي الـسُّـكـوتُ
صِــرْتُ كـأنّـي حــائِـرٌ مـبـهــوتُ
كــذا قـضـى الله فَـكَـيْـفَ أَصْـنَــعُ
الصمتُ إنْ ضــاقَ الكــلامُ أوســعُ

وهي طويلة جداً تقدّر بأربعة آلاف بيت.

مصادر البحث ومراجعه

١ ـ ابن أبي أصيبعه، أحمد بن القاسم بن خليف: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. ط القاهرة ١٨٨٢ م.

٢ ـ ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد: الكامل في التاريخ. ط القاهرة ١٣٠١ هـ.

٣ ـ ابن الأنباري، محمد: نزهة الألبا في طبقات الأدباء ط.

٤ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: كتاب العبر. ط. بولاق القاهرة.

٥ ـ ابن خلكان، أحمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان، ط القاهرة ١٣٣١ هـ.

٦ ـ ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني: العمدة، ط القاهرة ١٩٣٤ م.

٧ ـ ابن سعد، محمد كاتب الواقدي: كتاب الطبقات الكبير. ط ليدن (لا. ت).

٨ ـ ابن سلام، أبو عبد الله محمد الجمحي: طبقات الشعراء، دار المعارف، ط القاهرة ١٩٥٢ م.

٩ ـ ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد: العقد الفريد، لجنة التأليف والنشر والترجمة، ط القاهرة ١٩٤٠ م.
١٠ ـ ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي: شذرات الذهب، ط القاهرة ١٣٥٠ هـ.
١١ ـ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله الدينوري: الشعر والشعراء. ط بريل ١٩٠٤ م.
١٢ ـ ابن المعتزّ، عبد الله: طبقات الشعراء، ط القاهرة ١٩٥٦ م.
١٣ ـ ابن منظور، محمد بن مُكَرَّم: أخبار أبي نواس، ط القاهرة ١٩٢٤ م.
١٤ ـ ابن النديم، محمد بن إسحاق: الفهرست، ط التجارية القاهرة (لا. ت).
١٥ ـ أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم: الديوان، الأنوار الزاهية، ط بيروت ١٩١٤ م.
والديوان، أشعاره وأخباره، تحقيق شكري فيصل ط دمشق ١٩٦٥ م.
١٦ ـ أحمد أمين: فجر الإسلام، ط القاهرة ١٩٤٥ م.
ضحى الإسلام، ط القاهرة ١٩٣٨ م.
١٧ ـ آربري، أ. ج.: تراث فارس، ترجمة محمد كفافي وآخرين، ط القاهرة ١٩٥٩ م.

١٨ ـ الأصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد: مسالك الممالك، ط ليدن ١٨٧٠ م.
١٩ ـ الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، ط بيروت ١٩٥٦ م.
٢٠ ـ الأصفهاني، أبو نعيم: حلية الأولياء، ط القاهرة ١٩٣٢ م.
٢١ ـ الأصفهاني، الراغب: محاضرات الأدباء، ط القاهرة (لا. ت).
٢٢ ـ بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين وزميله، ط بيروت ١٩٤٩ م.
٢٣ ـ البكري، عبد الله بن عبد العزيز: معجم ما استعجم، تحقيق السقا، ط القاهرة ١٩٤٥ م.
٢٤ ـ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، ط القاهرة ١٩٤٧ م.
٢٥ ـ الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس: الوزراء والكتاب، تحقيق السقا، ط القاهرة ١٩٣٨ م.
٢٦ ـ جولد تسيهر، إيجناس: العقيدة والشريعة في الإسلام، ط القاهرة ١٩٤٦ م.
٢٧ ـ حتّي، فيليب: تاريخ العرب، ترجمة محمد مبروك نافع، ط القاهرة ١٩٥٢ م.
٢٨ ـ الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن تميم: زهر الآداب

وثمر الألباب. تحقيق البجاوي، ط القاهرة ١٩٥٣ م.
٢٩ ـ حنا الفاخوري: تاريخ الفلسفة العربية؛ ط بيروت (لا. ت).
٣٠ ـ الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد: تاريخ بغداد، ط القاهرة ١٩٣١ م.
٣١ ـ دي بور: تاريخ الفسلفة في الإسلام، ترجمة أبو ريدة، ط القاهرة ١٩٥٧ م.
٣٢ ـ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: العبر في خبر من عبر، ط الكويت ١٩٦٠ م.
٣٣ ـ رفاعي، أحمد فريد: عصر المأمون، دار الكتب، ط القاهرة ١٩٢٧ م.
٣٤ ـ سيديو، د. أ. تاريخ العرب العام، ترجمة زعيتر، ط القاهرة ١٩٤٨ م.
٣٥ ـ السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين: المزهر، طا القاهرة ١٢٨٢ هـ.
٣٦ ـ السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين: الأشباه والنظائر، تحقيق محمد يوسف ط القاهرة ١٩٥٨ م.
٣٧ ـ شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي ط القاهرة ١٩٦٠ م.

٣٨ ـ شوقي ضيف: النقد الأدبي، دار المعارف، ط القاهرة (لا. ت).

٣٩ ـ شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط القاهرة ١٩٦٩ م.

٤٠ ـ الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى: أخبار أبي تمام، ط القاهرة ١٩٣٧ م.

٤١ ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جبريل: تاريخ الرسل والملوك، ط القاهرة ١٩٣٩ م.

٤٢ ـ عبد الرحمن بدوي: شهيدة العشق الإلهي، رابعة العدوية، ط القاهرة (لا. ت).

٤٣ ـ العشماوي، محمد زكي، موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، دار النهضة، ط بيروت ١٩٨١ م.

٤٤ ـ الغرابي، علي مصطفى: تاريخ الفرق الإسلامية، ط القاهرة ١٩٤٨.

٤٥ ـ فون كريمر، ألفرد: الحضارة الإسلامية، ترجمة مصطفى بدر، ط القاهرة ١٩٤٧ م.

٤٦ ـ قدري حافظ طوقان: العلوم عند العرب، ط القاهرة ١٩٥٦.

٤٧ ـ القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط الخانجي ١٣٢٦ هـ.
٤٨ ـ الكتبي، محمد بن شاكر: عيون التواريخ، دار الكتب المصرية، القاهرة (لا. ت).
٤٩ ـ الكندي، أبو عمر محمد، كتاب الولاة والقضاة، ط بيروت ١٩٠٨ م.
٥٠ ـ محمد بديع شريف: الصراع بين الموالي والعرب، ط القاهرة ١٩٥٤ م.
٥١ ـ محمد جابر عبد العال: حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الإجتاعية والأدبية، ط القاهرة ١٩٥٤ م.
٥٢ ـ محمد غلاب: التصوف المقارن، ط القاهرة ١٩٥٦ م.
٥٣ ـ المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب، ط القاهرة ١٩٣٨ م.
٥٤ ـ المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد: أحسن التقاسيم، ط بريل ١٨٧٧ م.
٥٥ ـ النمري، أبو عمر يوسف بن عبد البر: مختصر جامع بيان العلم وفضله، ط القاهرة ١٣٢٠هـ.
٥٦ ـ نيكلسون، رينولد: في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة أبو العلاء عفيفي، ط القاهرة ١٩٥٦ م.

٥٧ ـ ياقوت، أبو عبد الله بن عبد الله الحموي: معجم الأدباء، دار المأمون، ط القاهرة (لا. ت).
٥٨ ـ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح: تاريخ اليعقوبي، ط النجف، العراق ١٩٥٨ هـ.
٥٩ ـ يوهان فك: دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية، ترجمة النجار، ط القاهرة ١٩٥١ م.

المراجع الأجنبية

1 – Coke, Richard, Baghdad, the city of Peace, london 1927.

2 – Nicholson, Reynold. A., A literary history of the Arabs, london 1907.

3 – vonkremer, Alfred, kulturgeschichte des orients unter den Chalifen, Wien 1877.

4 – Encyclopaedea of Islam, the English text different Arts.

فهرس الموضاعات

الفصل الخامس

الفصل السادس

لا شـكّ أنّ القارىء العـربيّ بحاجـةٍ مـاسّـةٍ إلى الاطّـلاع على تراثـه الفكريّ العـظيم المتمثّـل بـالأدب والتـاريخ والفـلسفـة والفقه وعلم الكلام وغيرِ ذلـك من ميادين الثقافة والمعرفة.

وبما أن تحصيل هذه المعرفة الموسوعية المتكاملة لا يكادُ يُتاحُ إلّا لأفراد قلائل من ذوي العقول المتميِّـزة والبصائر المتوقِّدة، كان لا بدَّ لنا من تقديم هذا التراث بشكلٍ مختصرٍ وجامعٍ في الوقت نفسهِ، بحيث يـوافق هذا الإطارُ المقْتَرَحُ أكثريةَ القرّاء العرب، وخاصة طلابَ المراحل الثانوية والجامعيـة. فكانت هـذه السلسلةُ عن أعلام الأدب من نثر وشعر، تولّى كتـابتها مجمـوعةٌ من الاختصاصيين الذين تَحَـرّوا فيها السّـلاسةَ في الأسلوب والعمقَ في التحليل والاختصارَ في المعلومات، بما يحقّق الهدفَ المنشودَ من إصدارها.

كما نشير إلى أننا ـ بالإضافة إلى هذه السلسلة التي بين يديك عن أعلام الأدباء والشعراء ـ أصدرنا، وسنصدر تباعاً إن شاء الله مجموعاتٍ أخرى عن أعلام الفكر العربي والغربي في مختلف الميادين المعرفية، بنفس الأسلوب والمنهج اللذين اتبعناهما في إصدار هذه السلسلة. والله من وراء القصد.